رسالة

نور على نور

في

الذكر والذاكر والمذكور



آية الله الشيخ

حسن زادة الآملي

أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

دار الهادي

رسالة

نور على نور

في

الذكر والذاكر والمذكور

رسالة

نور على نور

في

الذكر والذاكر والمذكور

آية الله الشيخ

حسن زاده الآملي

ترجمة

عرفان محمود



للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي أكرم عباده بدعوتهم إلىٰ ذكره، وشرفهم بالتعبد له بالدعاء، وحباهم بهذه الوسيلة السامية إلىٰ قربه، وجعل أبوابه مفتوحة للداعين، وعطاياه نازلة للسائلين، وأنواره متجلية للذاكرين.

والصلاة والسلام والتحيات الزاكيات علىٰ أزكىٰ الذاكرين وأئمة الداعين وأشرف السائلين المخلصين، محمد وآله والطاهرين، أصحاب موائد الذكر والدعاء العامرة بالإخلاص والأنوار والبركات، ومعلمي طالبي القرب الإلهي آداب الذكر والدعاء والمناجاة، وقادتهم في مضمار الوفود علىٰ أكرم الأكرمين.

وبعد؛

● فطرية الانقطاع إلى الله

فمَن منّا لم ينقطع إلىٰ الله عزّ وجلّ مرة أو مرات في حياته؟

قد لا تجدون ـ أعزائي ـ حتىٰ بين الملحدين مَن يجيب ـ صادقاً ـ بالنفي عن هذا السؤال! فعادة ما تمرُّ بالإنسان ـ أي إنسان ـ حالات نادرةٌ أو فريدةٌ أو متكررة تخنقُهُ الحوادث الداهمة، فينقطعُ

أمله بكل الأسباب، ولا يجد منقذاً له سوىٰ مسبب الأسباب القادر الذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض والسماء؛ الذي تدلُّ عليه فطرة الإنسان السليمة، فيتوجه ـ بعد أن يزيح يأسُهُ من الأسباب الحجب عن فطرته ـ إليه بصدق المضطر ويسأله أن ينقذه فيجده لدعوته مستجيباً لدعوته حتماً، اللهم إلا أن يكونَ من الذين حق عليه القول وانتهىٰ أمد إمهالهم أمثال فرعون ونظائره.

هذه الحالة هي حالةُ الانقطاع الفطري إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ؛ وهي التي استشهد بها الإمام الصادق عليه السلام، وهو يجيب مَن سأله عن الله، روىٰ المجلسي في البحار (ج ٣، ص ٤١) نقلاً عن معاني الأخبار للصدوق وتفسير الإمام العسكري عليه السلام أن رجلاً قال للصادق عليه السلام: يابن رسول الله دلني علىٰ الله ما هو؟ فقد أكثر عليّ المجادلون وحيروني، فقال عليه السلام له:

«يا عبد الله هل ركبتَ سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادرٌ علىٰ أن يخلصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر علىٰ الإنجاء حيثُ لا منجي وعلىٰ الإغاثة حيث لا مغيث».

وقال الإمام العسكري عليه السلام قبل أن يروي الحديث الصادقي المتقدم: «.. الله هو الذي يَتألَّهُ إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل مَن دونه وتقطع الأسباب من جميع من سواه، تقول: بسم الله، أي أستعين علىٰ أموري كلها بالله الذي لا تحق العبادة إلا له، المغيث إذا استُغيث، والمجيب إذا دعي».

● المطلوب هو كمال الانقطاع

ولكن الذي يطلبه أمير المؤمنين عليه السلام ويدعو المؤمنين بل عموم بني الإنسان إلىٰ طلبه ليس هذا الانقطاع الاضطراري القهري المؤقت إلىٰ الله، والمشار إليه في قوله عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ (النمل: ٦٢)، فقد ذمت الكثير من الآيات الكريمة حصر الارتباط بالله عزّ وجلّ بهذه الحالات الاضطرارية نظير قوله عزّ من قائل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ (يونس: ١٢)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النحل: ٥٣ ـ ٥٥)، وقوله جلت قدرته: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء: ٦٧)، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ (الزمر: ٨).

● دوام الانقطاع إلى الله

بل إن ما يطلبه أمير المؤمنين عليه السلام ويدعو الناس ويهديهم إليه هو «كمال الانقطاع إلىٰ الله» وهو انقطاعٌ طوعيٌ قائم علىٰ أساس إدراك المنقطع لحقيقة أن كماله الحق وسعادته الحقيقية في هذا الانقطاع، أي أنه قائم علىٰ أساس معرفة الله وتوحيده الشمولي وإدراك أنه هو الرب المدبر لشؤون عباده جميعاً، لا شريك له في

ذلك وهو الغالب علىٰ أمره، روىٰ الشيخ الصدوق في كتابي الخصال والتوحيد (كما في البحار، ج٣، ص: ٤٢) أن رجلاً سأل أمير المؤمنين: يا أمير المؤمنين بما عرفت ربك؟ فقال عليه السلام:

«بفسخ العزم [العزائم ـ خ]، ونقض الهمم، لما هممتُ حال بيني وبين همي، وعزمتُ فخالف القضاء عزمي، فعلمتُ المدبر غيري. قال [الرجل]: فبماذا شكرت نعماءَه؟ قال: نظرتُ إلىٰ بلاءٍ قد صرفه عني وأبلىٰ به غيري، فعلمتُ أنه قد أنعمَ عليّ فشكرتَهُ، قال: فبماذا أحببتَ لقاءَهُ؟ قال: لما رأيتَهُ قد اختار لي دين ملائكتَهُ ورسله وأنبيائِهِ علمتُ أن الذي أكرمني بهذا ليس ينساني فأحببت لقاءَه».

وهذه المعرفة تقتضي بأن يكون هذا الانقطاعَ دائماً لأن فيه الحياة الحقيقية للإنسان، يقولُ مولىٰ الموحدين في المناجاة الشعبانية التي اختصت من بين كل الأدعية والمناجاة المروية عن أهل بيت النبوة ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ بأنها الوحيدة الموصوفة بأنها مناجاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من ولده كانوا يدعون بها في شهر شعبان كما صرّح بذلك راويها الشيخ الجليل أبو عبد الله الحسين بن محمد بن خالويه (الإقبال للسيد ابن طاووس، ص ٦٨٥): «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنِرْ أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتىٰ تخرق أبصارُ القلوب حجب النور فتصل إلىٰ معدن العظمة وتصيرُ أرواحنا معلقة بعزِّ قدسك...».

● بركات الانقطاع الطوعي إلى الله

كمال الانقطاعِ إلى الله هو وسيلة تنور القلوب برؤية الله وزوال حجب النور عنها وتعلق الأرواح بعز القدس الإلهي، وبذلك يُلحق

العبد بمحل أهل طاعة الله والمثوىٰ الصالح من مرضاته ويتأهل لمقام: «واجعلني ممن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك فناجيته سراً وعمل لك جهراً»، وهذا المقام هو أعلىٰ مراتب القرب من الله عزّ وجلّ وأكرمها عليه وهو الذي يجعل العبد متحققاً بمرتبةٍ من مراتب حقيقة دعاء سيد المنقطعين إلى الله عزّ وجلّ وسيد الخلق أجمعين المصطفىٰ محمد ﷺ، وهو دعاء: «ربي لا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين أبداً». وعندها يُسري به ربُه في معارج النور ويريه من آياته الكبرىٰ وملكوت سماواته وحقائق الأشياء ما يتسع لها دعاؤهُ الوجودي كلٌّ حسب قدره ومرتبته في الانقطاع إلىٰ ربه. فينظر بعين الله البصير ويسمع بأذن السميع.

كمالُ الانقطاع إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، يجعلُ العبد متخلقاً بأخلاقِ مولاه ساعياً في ابتغاء رضاه، يراه - في كل الأسباب - وحده المسبب للأسباب، فلا تشغله رؤية أي منها عن رؤيته سبحانهُ، ولا يحجبه اللجوء إلىٰ أي منها عن الانقطاع لمن هي في قبضته جميعاً، فهو موحد متعلقٌ بحبل الوحدة في كل حين مستغرقٌ في مشاهدة الجلال والجمال الإلهي في كل المظاهر والكثرات.

● ذكر الله وكمال الانقطاع إليه

وأصدق مظهر وعلامة للانقطاعِ إلىٰ الله، ذكرهُ سبحانه وتعالىٰ، فالمنقطع إلىٰ شيءٍ لا يفتأ عن ذكره، كما أن ذكره عزّ وجلّ هو - من جهة ثانية - يثمر الانقطاع إليه بدءاً، ولذلك بدأ مولىٰ الموحدين عليه السلام المناجاة الشعبانية المباركة تلك بقوله: «اللهم صل علىٰ محمد وآل محمد واسمع دعائي إذا دعوتك واسمع ندائي إذا ناديتك وأقبلْ عليّ إذا ناجيتك فقد هربتُ إليك ووقفتُ بين يديك»،

ثم يمهّد ـ سلام الله عليه ـ لطلب كمال الانقطاع في أواخر المناجاة بطلب «الوله بذكر الله»: «إلهي وألهمني ولهاً بذكرك إلىٰ ذكرك، وهمتي في روحِ نجاح أسمائك ومحل قدسك»؛ ثم وفي ختام المناجاة يطلب بعد طلب كمال الانقطاع «دوام الذكر» الذي يرقىٰ بالعبد إلىٰ مراتب أسمىٰ من الانقطاع إلىٰ مولاه: «إلهي فلك أسأل وإليك أبتهلُ وأرغب وأسألك أن تصلي علىٰ محمد وآل محمد وأن تجعلني ممن يديم ذكرك ولا ينقضُ عهدك ولا يغفل عن شكرك ولا يستخف بأمرك، إلهي وألحقني بنور عزك الأبهج فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً ومنك خائفاً مراقباً يا ذا الجلال والإكرام، وصلىٰ الله علىٰ محمد رسوله وآله الطاهرين وسلّم تسليماً كثيراً».

إذن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ يثمر مرتبة أسمىٰ من مراتب الانقطاعِ إلىٰ الله عزّ وجلّ تولد بدورها مرتبة أسمىٰ من مراتب الذكر وهكذا دواليك، علىٰ أن ذكر الله بدءاً يولد التوجه إليه عزّ وجلّ لأنه يبعث في القلب الخشية من معصيته ويرسخ فيه حبه والمعارف المولدة لهذا الحب والدافعة إلىٰ اللوذ به والفرار إليه والانقطاع إليه. فهو يرسخُ في قلب الذاكر لله الاعتقاد السليم الباعث للحركة نحوه والإقبال عليه عز وجل، ويثمر المعرفة الوجدانية بمظاهر جلاله وجماله، وكبريائِهِ ورحمته، وبهائِهِ وعظمته، وسائر صفاتِهِ وأسمائِهِ الحسنىٰ التي تحفل ببيانها أذكار وأدعية نصوص مدرسة الثقلين، ولذلك كانت هذه الأذكارِ القدسية النبع الأسنىٰ للذكر السليم الباعث للحركة علىٰ الصراط المستقيم، لأنها صادرة من ينابيع الوحي ومعدن الحكمة ومصادر معرفة الله. ولذلك فهي تثير خزائن هذه المعرفة الفطرية الكامنة وتنقلها إلىٰ رحاب العرفان الفطري ومنهج السير والسلوك القويم. يقولُ سيد الساجدين وزين العابدين علي بن

الحسين عليه السلام في صحيفته المباركة وهي زبور آل محمد عليهم السلام في الدعاء (٤٥) وهو في وداع شهر رمضان المبارك:

«وأنت الذي دللتهم بقولك من غيبك وترغيبك الذي فيه حظهم؛ علىٰ ما سترتَهُ عنهم لم تدركه أبصارهم، ولم تعه أسماعهم، ولم تلحقه أوهامهم فقلت: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، وقلت: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وقلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فسميتَ دعاءَك عبادة وتركَهُ استكباراً... فذكروك بمنك وشكروك بفضلك ودعوك بأمرك...».

● شمولية ذكر الله

ولا يخفىٰ أن الذكر المطلوب هو الذكر الشمولي القلبي والعملي، وهو المطهر للجوارح من رجس الأقوال والأفعال التي لا ترضي المذكور جل جلاله وتنافي واجب شكره، وهو المطهر للقلب من دنس العقائد الفاسدة التي تنافي المعرفة الفطرية السليمة به تبارك وتعالىٰ، وبهذا الذكر التطهيري الدائم يصبح القلب قلباً سليماً ليس فيه سوىٰ الله عز وجل، فيكون حرماً له عزّ وجلّ يطمئن بذكره ويرضىٰ به رباً ولا يأنس بغيره. يقول زين العابدين في مناجاة الذاكرين:

«إلهي، فألهمنا ذكرك في الخلاء والملأ، والليل والنهار، والإعلان والإسرار، وفي السرّاء والضرّاء، وآنسنا بالذكر الخفي، واستعملنا بالعمل الزكي والسعي المرضي وجازنا بالميزان الوفي... إلهي بك هامت القلوب الوالهة، وعلىٰ معرفتك جمعت العقول المتباينة، فلا تطمئنَ القلوب إلا بذكراك، ولا تسكن النفوس إلا عند

رؤياك، أنت المسبح بكل لسان. . . وأستغفرك من كل لذةٍ بغير ذكرك، ومن كل راحةٍ بغير أنسك، ومن كل سرورٍ بغير قربك، ومن كل شغلٍ بغير طاعتك. . .».

● الدعاء حقيقة العبودية والتوحيد

والدعاء هو أسنىٰ ثمار الذكر، فهو ذكرٌ مع طلب حثيث للمذكور جلّ جلاله أولاً وآخراً، فطلبُ شتىٰ مواهبه وعطاياه ليس طلباً لها بما هي عطايا ومواهب، بل بما هي عطاياه هو جل جلاله ومواهبه هو جلت عطاياه وتباركت مواهبه؛ وهي لا تطلب من سواه فهي عطاياه ومواهبه، وهذا نهج العارفين الذّاكرين.

إن توحيد الله عزّ وجلّ في الدعاء والطلب هو ثمرة الذكر السليم وسنة القلب السليم المتطهر من دنس غيره تبارك وتعالىٰ، فهذا الذكرُ يرسخُ في القلبِ حقيقة أن الله جل جلاله هو وحده الجدير بأن يدعوه العبد في كل شأنٍ من شؤونه، ولكل شأنٍ من شؤونه صغر أو كبر، لأنه وحده تبارك وتعالىٰ مولاه وربه الذي بيده الخير كله والأمر كلّه، وهو ربّ العالمين وما نعمة إلا منه، فهو وحده الغني المطلق وما سواه فقرٌ محض والجميعُ فقراءُ إليه فكيف يسألُ فقيرٌ فقيراً؟

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ (فاطر: ١٣ ـ ١٥).

يقول سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام في بعض فقرات دعاء التوحيد الخالص المأثور عنه أنه تلاه في يوم عرفة:

«. . . وإلىٰ غيرك فلا تكلني، إلهي إلىٰ مَن تكلني؟ إلىٰ قريبٍ فيقطعني؟ أم إلىٰ بعيد فيتجهمني؟ أم إلىٰ المستضعفين لي وأنت ربي ومليك أمري؟. . . أنت كهفي حين تعييني المذاهب في سعتها وتضيق بي الأرض برحبها ولولا رحمتك لكنتُ من الهالكين. . . اللهم إنك أقرب من دُعي وأسرعُ من أجاب وأكرم مَن عفىٰ وأوسع من أعطىٰ وأسمعُ من سُئِل، يا رحمٰن الدين والآخرة ورحيمهما ليس كمثلك مسؤول ولا سواك مأمول، دعوتك فأجبتني وسألتك فأعطيتني ورغبتُ إليك فرحمتني ووثقت بك فرحمتني وفزعتُ إليك فكفيتني. . . لا كافي لنا سواك ولا رب لنا غيرك. . . إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكونُ فقيراً في فقري؟. . . فكن أنت النصير لي حتىٰ تنصرني وتبصرني وأغنني بفضلك حتىٰ أستغني بك عن طلبي، أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتىٰ عرفوك ووحّدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتىٰ لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلىٰ غيرك. . . ماذا وجد مَن فقدك وما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر مَن بغىٰ عنك متحولاً، كيف يُرجىٰ سواك وأنت ما قطعت الإحسان، وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدّلت عادة الامتنان. . . أنت الذاكر قبل الذاكرين وأنت البادىء بالإحسان قبل توجّه العابدين وأنت الجواد بالعطاء قبل طلب الطالبين. . .».

● الدعاء إقرار لله بالربوبية

من هنا يتضحُ أن توحيد الله عزّ وجلّ في الطلب والدعاء هو التعبير الصادق عن الإقرار بالربوبية له سبحانه وتعالىٰ والعبودية له والتذلّل والتضرّع له، والتطهّر من الاستكبار عليه والنزاهة من الشعور بالاستقلال والاستغناء عنه، أي أنه تجسيد لحقيقةِ الربوبية

والمربوبية؛ بمعنىٰ إدراك الإنسان لكونه عبداً مربوباً لله الواحد الأحد، فلا غنىٰ له عنه سبحانه في أصل وجوده وفي كل شأنٍ من شؤونه وفي أي مرتبةٍ من مراتب القرب والكمال كان.

وعليه يتضحُ أن توحيد الله في الدعاء والإقبال عليه والتوجه إليه بالدعاء هو تجسيدٌ للانقطاعِ إليه جلّ وعلا، وبالتالي فهو مفتاح الحصول علىٰ مختلف البركات الوجودية بمختلف درجاتها: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧).

بيد أن توحيد الله عزّ وجلّ في الطلب والدعاء هو - كما هو حال التوكل عليه جل جلاله - لا يتعارض مع التوسل بالأسباب. فقد قامت سنة الله جلت حكمته علىٰ إجراء الأمور بأسبابها ونحن مأمورون بذلك والدعاء بحدِّ ذاته هو من الأسباب، لكن المهم هو أن يكون الأخذ بالأسباب بإذن مسبب الأسباب أولاً؛ وأن لا يغفل الأخذ بها عن رؤية مسببها وإدراك أن الفاعل الحقيقي هو عزّ وجلّ وأن الأمر كله بيده.

● ملاحظات بشأن الرسالة وترجمتها

الرسالة التي نقدّم ترجمتها لقرّاء العربية تبينُ جملة من الحقائق المعرفية؛ النقلية والعقلية والعرفانية؛ بشأن الذكر والدعاء، والذاكر والمذكور، والداعي والمدعو، وهي تشتملُ علىٰ الكثير من الفوائد بعضها يندرُ الحصول عليها في غيرها. وهي من رشحات قلم آية الله الشيخ حسن حسن زاده الآملي، وهو من كبار أساتذة الحكمة والعرفان في حوزة قم العلمية، وله تجربةٌ طويلةٌ علمية وعملية في هذا المسلك وقد حظي بالتتلمذ علىٰ جماعة من أعلام العرفاء وصالحي العلماء، أمثال:

العلّامة الطباطبائي وأخيه آية الله السيد محمد حسن الإلهي، والعلّامة الشيخ أبي الحسن الشعراني، وآية الله السيد أبي الحسن الرفيعي القزويني، وآية الله الشيخ محمد تقي الآملي وغيرهم كثير، كما امتاز بسعةِ الاطلاع علىٰ المعارف الإسلامية خاصة المتون الحكمية والعرفانية والتبحر فيها، الأمر الذي يزيد من قيمة هذه الرسالة القيمة ويضاعف من بركة اطلاعِ طالبي القرب الإلهي عليها.

وينبغي هنا أن نشير إلىٰ بعض الملاحظات بشأن هذه الرسالة القيمة وترجمتها التي نقدمها لقراء العربية؛ وهي:

أولاً: لقد كتب آية الله الآملي هذه الرسالة علىٰ نحو التذكرة ولذلك فقد جاءت موجزة في الكثير من بحوثها، تعتمد علىٰ الإشارات والإيماءات والبلورات دون الشرح والتفصيل، الأمر الذي يستلزمُ التأني في قراءتها والتدبر في مطالبها وموضوعاتها بغية اقتناص فوائدها، والصبرُ والتحمل في مثل هذه الأمور ليسا بالأمر المستبعد علىٰ الهمم العالية لطلاب المعارف النافعة وسالكي طريق الحقيقة الذين يعرفون قيمة ما يطلبونه، ولعل المؤلف ـ حفظه الله ـ قد تعمّد استخدام هذا النهج لكي يشارك القرّاء في مشاقِ الوصول إلىٰ هذه المقاصد السامية ليكون انتفاعهم بها أعمق لأنها ستكون ثمرة صدقهم واجتهادهم في طلبها.

ثانياً: كما أن المؤلف قد استخدم ـ في معظم فقرات الرسالة ـ اللغة العلمية والقديمة أيضاً المألوفة في المتون العرفانية، وقد سعينا إلىٰ حفظ هذه اللغة عند الترجمة مع ترجيح المفردات التي تكون أقرب للمستوىٰ العام عند الإمكان، ولكن مع الالتزام بالمصطلحات المتداولة عند أهل هذا الفن.

ثالثاً: وضعنا عناوين كثيرة لمباحث وتبصرات الرسالة وقد ميزناها بمعقوفتين بهذا الشكل ([]) لكي لا تختلط بأصل الرسالة، وهدفنا من وضع هذه العناوين إعانة القارىء على معرفة لباب مطالبها والمراد من فقراتها وتيسير الرجوع إليها وحفظ أفكارها.

رابعاً: كما ثبتنا في هوامش الرسالة بعض التعليقات التي تعينُ على فهم بعض الحقائق المهمة فيها أو التي تنبه إلى حقائق تكميلية لما في المتن، بما سنح لنا وهدانا الله إليه في ليالي شهر رمضان المبارك التي خصصنا شطراً منها لترجمة هذه الرسالة لوثاقةِ الارتباط بين موضوعها وبين شهر الله الأكبر وهو أعظم المواسم السنوية الخاصة بالذكر والدعاء.

خامساً: قمنا بتخريج ما لم يخرجه المؤلف من النصوص الواردة في الرسالة، وقد امتاز المؤلف بالدقة في ضبط الكثير من النصوص وتخريجها من مصادرها، ولكننا قمنا - تحرياً لمزيد الدقة - بضبطها وإن لم نضف لما خرجه ذكر المصادر في الهامش حرصاً على عدم الإكثار من الهوامش.

سادساً: يبدو أن المؤلف قد اعتمد في ذكر أرقام معظم الآيات التي استشهد بها على أساس حساب في كل سورة باعتبارها الآية الأولى منها، ولذلك فقد جاءت أرقام الآيات متقدمة بعدد واحد على الأرقام المألوفة في المصاحف، وقد غيرنا هذه الأرقام الواردة في أصل الرسالة إلى الأرقام المألوفة في المصاحف - أي بإنقاص عدد واحد من كل منها - وذلك دفعاً للالتباس عن مَن قد لا يلتفت إلى الحكمة في هذا الاختلاف، وقد أوردنا هذه الملاحظة أداءً للأمانة.

سابعاً: وقد أُلحقت بهذه الرسالة أحد عشر ملحقاً توضيحياً هي

عبارة عن بحوث أوردها المؤلف في كتبه الأخرىٰ لها صبغة الشرح لبعض مطالب هذه الرسالة، وقد أرجع إليها الطالبين إليها، فألحقناها بهذه الرسالة تسهيلاً للأمر علىٰ الذين لا تتيسر لهم مراجعتها في كتب المؤلف الأخرىٰ.

● بشارة في سمو مقام الداعين والذاكرين

ولنجعل مسك الختام لهذه المقدمة آية كريمة وإضاءة نبوية في بيان عظمة مقام الدعاء والداعين ونقرنهما بتعليق بليغ لأحد سادات الداعين وأحد كبار العلماء الذين سجل لهم التأريخ فضيلة حفظ الكثير من تراث أدعية أهل بيت النبوة ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ وقدمها ذخيرة مباركة لطالبي القرب الإلهي، هو السيد الجليل علي بن طاووس ـ رضوان الله عليه وجزاه عن الذاكرين والداعين خير الجزاء ـ.

أما الآية الكريمة فهي قوله تعالىٰ في آية (٢٨) من سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

وفي مجمع البيان (ج ٣، ص ٤٦٥) قال:

«نزلت الآية في سلمان وأبي ذر وصهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء أصحاب الرسول ﷺ. وذلك أن المؤلفة قلوبهم جاؤوا إلىٰ رسول الله ﷺ، عيينة بن حصين والأقرع بن الأقرع وذووهم، فقالوا: يا رسول الله، إن جلست في صدر المجلس ونحيتَ عنا هؤلاء وروائح صنانهم [والصنان هو نتن الإبط]؛ وكانت عليهم جبات الصوف؛ جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء.

فلما نزلت الآية قام النبيُّ ﷺ يلتمسهم، فأصابهم في مؤخّر المسجد يذكرون الله عزّ وجلّ، فقال:

«الحمدُ لله الذي لم يمتني حتىٰ أمرني أن أصبّر نفسي مع رجالٍ من أمتي.

معكم المحيا ومعكم الممات».

وعلّق السيد ابن طاووس علىٰ هذه الآية الكريمة في كتابه القيّم (سعد السعود، ص ٧٤) قائلاً: «اعلمْ أن ظاهر هذه الآية يقتضي تعظيم الدعاء لله بالغداة والعشي وتعظيم الذين يعملون ذلك خالصاً لوجه الله تعالىٰ. فإنّ مقام الرسالة من أبلغ غايات الجلالة، فإذا أمر الله تعالىٰ رسولَهُ وهو السلطان الأعظم ﷺ أن يصبر نفسه الشريفة المشغولة بالله مع الدعاة بالعشي والغداة، وصار المتبوع المقتدىٰ به كالتابع والجليس والملازم... بطريق ما خصهم به من إخلاص الدعاء في الصباح والمساء؛ فقد بالغ جل جلاله في تعظيم هذا المقام بما يقصر عن شرحه لسان الأقلام والأفهام».

نسأل الله تبارك وتعالىٰ أن يوفقنا ـ بلطفه وكرمه ـ لدوام ذكره بالغداة والعشي نبتغي وجهه الكريم بذلك ونتوجه إليه بالدعاء في كل حالٍ، ويجعلنا من عباده الذين شرفهم بدوام ذكره ببركة موالاة محمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين. إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ليلة عيد الفطر المبارك

سنة ١٤٢٣ للهجرة

عرفان محمود

تمهيد

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ (البقرة: ١٨٦).

الحمدُ لله الذي ذكره شفاء واسمه دواء، وهو سامع الدعاء ودافع البلاء، والصلاة والسلامُ علىٰ خاتم المرسلين وسيد الأصفياء، وعلىٰ آله الذين أولهم «آدم»[١] أولياء الله وآخرهم خاتم الأوصياء[٢]، وعلىٰ جميع الأنبياء والأولياء؛ مادامَ الحديث عن القرآن والدعاء.

وبعد؛

يقول المتحصن بظل لواء الحمد، حسن حسن زاده الآملي الطبري ـ سقاه الله وإياكم شراباً طهوراً[٣] ـ:

---

(١) يعني وصي رسول الله ﷺ أمير المؤمنين ومولىٰ الموحدين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فهو بعد رسول الله ﷺ أسمىٰ مصاديق الإنسان الكامل وخليفة الله في أرضه وهو قدوة أولياء الله ووسيلتهم لطي معارج الكمال والقرب من الله، وهو المكلف بتحرير البشرية من أغلال الطبيعية ـ حسب تعبير الإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ في مقدمة وصيته السياسية الإلهية. [المترجم].

(٢) يعني إمام العصر الحجة ابن الحسن ـ عجل الله فرجه ـ المهدي المنتظر. [المترجم].

(٣) اقتباس من قوله تعالىٰ في سورة الدهر أو الإنسان (الآية ٢١): ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، وسيأتي توضيح لمعنىٰ هذا الشراب الطهور وآثاره. [المترجم].

هذه رسالة في الدعاء والذكر والمناجاة مشتملة علىٰ مقدمة وأحد عشر فصلاً؛ وهي مسماة برسالة «نورٌ علىٰ نور في الذكر والذاكر والمذكور»؛ فهي - في الحقيقة - مائدة مباركة طيبة ينتفع ببركاتها الخواص إذْ أنّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٞ مَّعْلُومٞ ۝٤١﴾[1].

فمقدمتها تشتمل علىٰ بضع كلمات في مكانة وأهمية الدعاء.

الفصل الأول: يضمُ أربعين كلمة مباركة منتخبة من القرآن الكريم بشأن الذكر والدعاء، ومعها أربع عشرة تبصرة في بيان بعض أسرار تلك الكلمات.

الفصل الثاني: في بيان سر اختصاص الأدعية المأثورة عن أهل بيت النبوة عليهم السلام يعرض حقائق ودقائق لا توجد في أحاديثهم الشريفة، ويشتمل هذا الفصل علىٰ تبصرة واحدة.

الفصل الثالث: في بيان أن الله سبحانه قد جعل حداً معيناً لكل الأعمال ورضي بالقليل منها باستثناء الذكر والدعاء، وفيه أربعُ تبصرات.

الفصل الرابع: في بيان حكم الأعداد المُعينة لبعض الأدعية والأذكار.

الفصل الخامس: في بيان آثار أوقات وأمكنة الذكر والدعاء، وفيه تبصرة واحدة.

الفصل السادس: في بيان آثار طهارة الداعي.

الفصل السابع: في أهمية اجتناب اللحن في الدعاء، وفيه تبصرتان.

---

(١) سورة الصافات: ٤١.

الفصل الثامن: في أحكام الدعاء المأثور عن أهل بيت النبوة عليهم السلام والدعاء غير المأثور عنهم، وفيه تبصرة واحدة.

الفصل التاسع: وفيه بحثان: الأول بشأن الاختلافات في أحوال الداعين وما يسنح لهم وآثار ذلك؛ والثاني في بيان كيفية إفاضة ما يُلْقىٰ للداعين، وفيه تبصرةٌ واحدة.

الفصل العاشر: في بيان الأدب مع الله، وهو منور بسبعِ إضاءات، وفيه ثلاث تبصرات. أما الإضاءات فهي:

الأولىٰ: أن الأدب مع الله يستلزمُ حضور القلب وتوجهه لحضرته القدسية.

الثانية: أن لا يتصرف العبد في شيءٍ بغير إذن مولاه جل وعلا.

الثالثة: أن العبادة ينبغي أن تكون حبيّة صادرة عن الحب للمعبود.

الرابعة: أن يكون الدعاء بأسماء الله الحسنىٰ.

الخامسة: في بيان موضوع «الوقاية» ومعناها.

السادسة: في لزوم عدم تجاوز الحدود فيما يُطلب في الدعاء.

السابعة: في لزوم تعظيم أسماء الله تعالىٰ.

الفصل الحادي عشر: في بيان سر استجابة الدعاء، وفيه تبصرتان.

المقدمة

[منزلة الدعاء وثماره]

الدعاءُ مفتاح العطاء، ووسيلة القرب إلىٰ الله تعالىٰ، ومخ العبادة، وحياة الروح، وروح الحياة.

بالدعاء يُفتح باب الرحمة الرحيمية، وتُستنزل فتوح بركات شرح الصدر وتنور السر.

الدعاء يرسخ حب الذكر الإلهي في القلب، وينزه النفس ويطهرها من رَيْنِ الشواغل.

الدعاءُ زاد السالكين إلىٰ حرم الكبرياء الإلهي الأزلي، وشعار عشاق قبلة الجمال، ودثار العارفين بكعبة الجلال.

الدعاءُ هو سير أهل الكمال الشهودي وكشفهم الوجودي، والوسيلة الوحيدة لارتباط الإنسان بربه تبارك وتعالىٰ.

الدعاءُ هو معراج عروج النفس الناطقة إلىٰ ذروة الوحدة، ودخولها إلىٰ رحاب ملكوت العزة.

الدعاءُ مرقاة رقي الإنسان إلىٰ مقام الولاية، ورفرف تسنمه مرتبة الخلة.

الدعاء هو براق صيرورة الإنسان «الاسم الأعظم»، وسبيله

للفوز بكنوز القرآن، وكشف أسرار التصرف في طبائع الأجرام والأركان.

الدعاء كاسرُ القلبِ وجابره ببركة أصل: «أنا عند المنكسرة قلوبهم»[1]. إذْ أن بالدعاء ينكسر القلب، والقلب المنكسر هو أسمىٰ وأغلىٰ بضاعة في سوق الوجود لأن الله في القلب المنكسر:

إلهي؛ إذا كسرت قلبي مرة، فاكسرْ مني كل ما ينكسر!

الدعاءُ هو تعطير القلب بذكر الحبيب وتطهير اللسان بذكر اسمه، والأنس به في الخلوة ومناجاته في الوحدة وتذوق حلاوة مخاطبته.

ولا قيمة للقلب الخالي من الدعاء، فلا يوجد من يشتري قلباً بلا قيمة: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[2]. يقول صادقُ آل

(١) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء للفيض الكاشاني، ج ٢: ٣٠٤، ويُلاحظ هنا أن الآثار التي ذكرها المصنف هنا للذكر والدعاء هي خلاصة للكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة واستنباطات العلماء الربانيين منها وتحقيقات أهل المعرفة وطلاب الحكمة الإلهية، بيد أن من الضروري الالتفات إلىٰ أن هذه الثمار مشروطة بتحقق الداعي بحقيقةِ الدعاء والتوجه إلىٰ الله عز وجل والانقطاع إليه والاستشعار الوجداني لحقيقة أن الأمر كله بيده تبارك وتعالىٰ وأنه هو مسبب الأسباب الذي جعل منها الذكر والدعاء سبباً حاكماً علىٰ سائر الأسباب يرد القضاء وقد أُبرم إبراماً. وهذا هو الشرط الأساسي الذي يجعل الدعاء ـ أي دعاء ـ مستجاباً قطعاً بنص الآية ١٨٧ من سورة البقرة، وللسيد العلاّمة الطباطبائي تحقيق قيم وجامع في هذا الباب أورده في تفسير هذه الآية الكريمة في الجزء الثاني من تفسيره الميزان.
وإلىٰ جانب هذه الحقيقة المحورية والشرط الأساسي فإن العمل الدقيق بآداب الدعاء التي ذكرتها النصوص الشرعية ـ الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ـ يُعينُ كثيراً على التحقق بهذه الحقيقة وتوفير هذا الشرط. ولا يخفىٰ أن ثمار الذكر والدعاء تتناسب طردياً مع درجة التحقق بذلك والعمل بتلك الآداب. [المترجم].

(٢) سورة الفرقان: ٧٧، وفي الآية الكريمة إشارة إلىٰ أن الدعاء تجسيد لحقيقةِ العبودية والإقرار لله بالربوبية، وإلا فإن نعم الله جل كرمه شاملة للداعي وغير الداعي بل للمؤمن والكافر، وفي الآية تنبيه إلىٰ أن الدعاء وسيلة الحصول علىٰ الرحمات الرحيمية الخاصة. [المترجم].

محمد ـ صلوات الله عليهم ـ: «عليكم بالدعاء فإنكم لا تُقَرّبُون بمثلِهِ» (الكافي، ج٢، ص: ٣٣٩).

إن جمود العين وخمول اللسان عن الدعاء نتيجة لعمىٰ القلب. ورغم أن الحب أساس الذكر والدعاء، إلا أن الحب يتولد ـ في بداية الأمر ـ من الذكر والدعاء والمناجاة، ثم يُولدُ بالتالي الذكر والدعاء والمناجاة والتضرع بلوعة للحبيب.

يُثمر الذكرُ في بداية أمره الأنس بالحبيب ثم يتولدُ في النهاية من لقاء الحبيب والأنس به.

فالطيرُ لا يهوىٰ إلىٰ الأرض إلا بعد أن يرىٰ النبات عليها
يصير السالك العارف طيرَ الحق سبحانه
فيطوي منازل السير والسلوك بذكر الحق سبحانه
وطوبىٰ للقلب الذي يحظىٰ بأنوار التجلي ببركةِ صدق التولي
وكيف لا يقبل طير الحق علىٰ الحق بعد أن يرىٰ بهاء جماله المطلق(١)

[اهتمام العلماء بالتصنيف في أبواب الدعاء]

وقد أنزلت آياتٌ بينات في توضيح مكانة الدعاء وأهميته ومقاماته، وصدرت عن أئمة الدين أحاديث نيرات في بيان أسراره وآدابه، الأمر الذي حفز أساطين العلم علىٰ تصنيف الكتب في أبوابه وجمع المتفرقات في صحائفه، والبحث في مواضيعه المتنوعة،

(١) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية؛ وفيها إشارات إلىٰ حقيقة أن الدعاء وذكر الله تبارك وتعالىٰ يثمران ـ في كل مرتبة ـ درجةً من حب الله عز وجل وتوحيده والإقبال عليه والتوجه والانقطاع إليه، ثم تثمر هذه المرتبة درجة أعمق وأكثر بركة من الذكر والدعاء. تثمر بدورها درجة أسمىٰ من حبِّ الله وتوحيده والانقطاع إليه وهكذا، وهذا هو أحد أسرار ما سيأتي في الفصل الثالث مَن أن الله عز وجل لم يكتف بالقليل من الدعاء وذكره ولم يجعل لذكره حداً. [المترجم].

ففتحوا بذلك للنفوس المستعدة أبواباً للرحمة، وأطلقوا علىٰ مصنفاتهم أسماءً محببة تحيي القلوب وتؤنس الأرواح مثل: «مفتاح الفلاح»، و«عدة الداعي»، و«فلاح السائل»، و«قوت القلوب»، و«مصباح المتهجد»، و«روضة الأذكار»، و«منهاج العارفين»، و«منهاج النجاح»، ونظائرها؛ فهذه الأسماء معطرة بأريج الدعاء ولذلك فهي تعطر الأرواح به وتجذب القلوب إلىٰ رياض القدس وتصطحب النفوس إلىٰ مجالس الأنس.

[ضرورة تدريس كتب الدعاء]

ورجاؤنا هو أن تدخل صحف الأدعية والأذكار الصادرة عن أئمتنا الأطهار والمبينة لمقامات الكمال الإنساني ومدارجه ومعارجه؛ ضمن قائمة الكتب الدراسية في حوزاتنا العلمية، لكي تُدرس علىٰ أيدي العارفين بأسرارها والذين هم أنفسهم من أهل الدعاء والسير والسلوك إلىٰ الله، الذين سلكوا هذا الطريق والذين يهدون الطالبين إليه.

وأرىٰ ـ أنا أقل العباد منزلة ـ أن ترتيب هذه الكتب ضمن الكتب الدراسية ينبغي أن يكون علىٰ النحو التالي:

تبدأ أولاً دراسة كتاب «مفتاح الفلاح» للشيخ البهائي، ثم كتاب «عدة الداعي» لابن فهد، وبعده كتاب أبي طالب المكي المسمىٰ «قوت القلوب»، ثم كتاب «الإقبال» للسيد ابن طاووس، ثم تختم المراحل الدراسية بتدريس الصحيفة السجادية الكاملة وهي إنجيل أهل البيت وزبور آل محمد ﷺ. فإن لذلك عظيم الأثر في إحياء المعارف الإسلامية الأصيلة.

ولا يخفىٰ أن تعليم وتعلم هذه الكتب غير ممكن إلا بالاطلاع علىٰ العلوم الأدبية والمعارف النقلية والعقلية والعرفانية، ولكن منك الحركة ومن الله البركة و: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

ولا شك ولا ريب في أن الفوز بهذه المعارف الإلهية النيرة، أهم وأنفع ـ بأضعاف مضاعفة ـ من تعلم الكثير من المباحث الرائجة والمألوفة، بل لا يمكن مقارنة هذه بتلك. وكان المعلم الجليل آية الله المرحوم المولىٰ حسين قلي الهمداني ـ الذي تربىٰ علىٰ يديه ثلاثمائة من أولياء الله طبق ما نقله بعض مشائخنا ـ كان يقول: «إن كتاب مفتاح الفلاح للشيخ البهائي مفيدٌ نافع لعمل المؤمن».

[عظة تراث أهل البيت (ع) الدعائي]

ويشتمل كتاب الدعاء من الجامع القيم الموسوم بالكافي لثقة الإسلام الكليني ـ وهو الكتاب السادس من هذا الجامع ـ علىٰ ستين باباً فيها أربعمائة حديث مروي عن وسائط الفيض الإلهي ـ سلام الله عليهم ـ، وكل باب من أبوابه روضة من رياض الرضوان الإلهي، وكل حديث من أحاديثه غصن من أغصان شجرة «طوبىٰ» الإيمان.

هذا هو المروي في «الكافي» وحده بشأن الدعاء، فما بالك بما اشتملت عليه كبارُ الجوامع الحديثية مثل: الوافي، وبحار الأنوار، والعوالم، وفصل الخطاب، ونظائرها؟ لقد اشتمل الجزء

---

(١) سورة النجم: ٣٩، ومن النافع للغاية علىٰ أي حال التدبر بعمق في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المروية في أبواب الدعاء والاستضاءة بأنوارها، فهي من مصاديق مباركة الله تبارك وتعالىٰ لسعي الداعي إلىٰ التقرب إلىٰ بارئهِ عز وجل بالذكر والدعاء، وهي خير ما يبين أسرار الدعاء وذكر الله. [المترجم].

الثاني من المجلد التاسع عشر من موسوعة البحار وحده[1] ـ وهو في الأذكار والأدعية فقط ـ علىٰ مائة وواحد وثلاثين باباً وخاتمة، وهذا الجزء يزيد بعدةِ أضعاف علىٰ كتاب الكافي المذكور، يُضاف إلىٰ ذلك أنه توجد أحاديث أخرىٰ بشأن الأدعية والأذكار في أبواب أخرىٰ تناسبها من باقي كتب وأبواب «الكافي» و«البحار».

إن هذه الدُرر من الروايات والغرر من الأحاديث تدلُّ بوضوح علىٰ شدة اهتمام أهل بيت النبوة ـ وهم سفراء الله ووسائط فيضه الربوبي ـ بالذكر والمناجاة والدعاء في جميع شؤونهم الحياتية وفي جميع أحوالهم وأوقاتهم. كما أنها تدل علىٰ شدة اهتمامهم بترغيب أنصارهم وأتباعهم وتلامذة مدرستهم في الاقتداء بهم في الاهتمام بأمر الدعاء والذكر والمناجاة.

ومن الجدير ـ استيفاءً لحق الدعاء ـ أن تدرس بدقة الآيات الكريمة النازلة بشأنه، وكذلك أبواب كتب الدعاء في الجوامع الحديثية وبصورة مستوعبة مفيدة، لكي تتحصل المعرفة الكاملة بأسرار الأذكار والأدعية الشاملة لأفعال الإنسان وأحواله المختلفة. ولكن نكتفي هنا بعقد الفصول التي وعدنا بها في المقدمة وأملنا هو: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[2]، فنبدأ في عرض هذه الفصول، وكل فصل منها هو أصل في هذا المقام و: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[3].

---

(١) من الطبعة القديمة وهي التي اعتمدها المصنف في نقولاته وهي ذات عشرين مجلداً، وعليها اعتمد المؤلف في إرجاعاته إلىٰ موسوعة البحار.

(٢) سورة الطلاق: ١.

(٣) سورة الأعراف: ٥٤.

الفصل الأول:

أربعون كلمة منتخبة من القرآن الكريم بشأن الذكر والدعاء

[لزوم الاهتمام بالأدعية القرآنية]

ينبغي للإنسان النازل في منزل اليقظة والعارف بمنطق الوحي أن يتلو ختمة كاملة من القرآن الكريم بدقة وتدبر وهو يبحث فيه وينتخب منه:

١ ـ الأسماء التي يصف الله بها ذاته المقدسة.

٢ ـ الأسماء التي تناديه بها ملائكته.

٣ ـ الأدعية التي دعاه بها الأنبياء والأولياء عند نزول الشدائد وفي مختلف حالاتهم وأوضاعهم وحكاها القرآن الكريم علىٰ لسانهم؛ فهم عليهم السلام قد اختاروا اسماً خاصاً من الأسماء الإلهية، ودعاءً خاصاً لكل واحدة من تلك الشدائد والحالات والأوضاع.

وواضحٌ أن نظائر تلك الشدائد والحالات تنزلُ بالآخرين أيضاً بما يتناسب مع مراتبهم وأوضاعهم الزمانية، وكأن كلّاً من أولئك الأشخاص والحالات نموذجٌ يتكرر في كل الأحيان بصورٍ معينة، ولذلك فإن علىٰ مَن يبتلي في حياته بأمثال تلك الحالات أن يدعو

الله بالأسماء والأذكار والأدعية والمناجاة كلٌّ منها في الحالة المناسبة لها طبقاً لما بيّنه القرآن الكريم، فيتخذها وسيلة للنجاة والسعادة. وهذا منهاج عملي ورد الحث الأكيد على الالتزام به كما يظهر من التدبر والتعمّق في الكثير من الآيات، ومن التأمل والتدقيق في الكثير من الأحاديث الشريفة. ونحن نكتفي هنا في الاستشهاد علىٰ ذلك بالتبرك بنقل آية ورواية فيهما الكفاية لذوي الألباب:

فمثلاً يقولُ الله سبحانه في سورة الأنبياء المباركة مشيراً إلىٰ فضيلة ذكر «اليونسية»:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[1].

وينبغي التدبر بعمق في العبارات الثلاث المباركة: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ و﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ و﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لمعرفة آثار هذا الذكر الشريف وهو ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ وينبغي التدقيق خاصة في العبارة المباركة الثالثة فمضمونها عام يشمل جميع المؤمنين، وفيها وعد الله سبحانه بالإنقاذ للمؤمنين كافة، واستخدم صيغة الجمع المُحَلَّىٰ بالألف واللام كما استخدم صيغة الفعل المضارع المفيد لتحقق الوعد باستمرار وإلىٰ الأبد. فتبصر!

[تنبيه من الإمام الصادق (ع) إلى آثار الأدعية القرآنية]

والنموذج الثاني هو الحديث الشريف التالي وهو حقاً من غرر الأحاديث الشريفة وجدير بأن يُتدبر فيه بعمق:

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨.

روىٰ الشيخ الصدوق ـ رضوان الله تعالىٰ عليه ـ في المجلس الثاني من كتاب «الأمالي»، الحديث الثاني، بإسناده عن هشام بن سالم ومحمد بن حمران عن الإمام الصادق عليه السلام، وكذلك رواه الطبرسي ـ قدس سره ـ في تفسير «مجمع البيان»، عن هشام بن سالم وأبان بن عثمان عن الصادق عليه السلام قال:

«عجبتُ لمن فزع من أربع كيف لا يفزع إلىٰ أربع؟!

عجبتُ لمن خاف، كيف لا يفزع إلىٰ قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1] فإني سمعتُ الله عزّ وجلّ يقولُ بعقبها: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[2].

وعجبتُ لمن اغتمّ، كيف لا يفزع إلىٰ قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإني سمعتُ الله عزّ وجلّ يقول بعقبها: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

وعجبتُ لمن مُكِرَ به، كيفَ لا يفزع إلىٰ قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[4]، فإني سمعت الله عزّ وجلّ يقولُ بعقبها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾[5].

---

(١) آل عمران: ١٧٣، وتمام الآية والآية اللاحقة التي استدل بها الإمام عليه السلام هي: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾، وواضحٌ من التدبر فيها أنهما تتحدثان علىٰ أبرز وأهم مصاديق الخوف المحتملة وهو اجتماع الناس ضد المؤمن وآثار هذا الذكر الجليل في دفع مكرهم. [المترجم].

(٢) سورة آل عمران: ١٧٤.

(٣) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٤) سورة غافر: ٤٤.

(٥) سورة غافر: ٤٥، والآيتان بشأن مؤمن آل فرعون.

وعجبتُ لمن أراد الدنيا وزينتها، كيف لا يفزعُ إلىٰ قوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1] فإني سمعتُ اللَّهَ عزّ وجلّ يقولُ بعقبها: ﴿... إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ ...﴾[2]. وعسىٰ موجبة»[3].

وواضحٌ ـ كما تلاحظون ـ أن الإمام عليه السلام يستنبط من الآيات المذكورة سعة آثار تلك الأذكار لتشمل تجدد الحالات إلىٰ الأبد، فلا خصوصية لها بمقامٍ معين أو مورد محدد، بل إن كل ذاكر لله بذكر اليونسية بهدف النجاة من الغم تشمله الرحمة ويشمله وعد: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهكذا الحال لمن توسل بالأذكار الشريفة المذكورة لدفع الخوف ودفع مكر السوء، والحصول علىٰ الدنيا وزينتها.

● تبصرة [في الرجوع إلى العارفين بلغةِ أهل البيت (ع)]

ثمة قضية مهمة في هذا الحديث الشريف، وهي: لماذا لم يقل الإمام عليه السلام: «قال الله عز وجل»، بل كرر القول: «فإني سمعت الله عزّ وجلّ يقول»؟ ما هو سر هذا التعبير؟ لقد ذكرنا عدة إشارات في بيان هذا السر المستتر، وذلك في الحديث (كب) من النكتة (٧١٧) من كتاب «ألف نكتة ونكتة» (ص: ٥٦٥ ـ ٥٦٧، ط١)[4]، عسىٰ أن

---

(١) سورة الكهف: ٣٩.

(٢) سورة الكهف: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) بحار الأنوار، ٩٣: ١٨٤، ح ١ من الطبعة الحديثة.

(٤) يقول المؤلف في النكتة المشار إليها في المتن:
قال جعفر بن محمد الصادق ـ وقد سألوه عن شيءٍ لحقه في الصلاة فخر مغشياً عليه، فلما سري عنه قيل له في ذلك فقال: «ما زلتُ أردد الآية علىٰ قلبي حتىٰ سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمه لمعاينة قدرته تعالىٰ» (كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي، ج ١، ص: ١٠٠، طبعة مصر).

=

تكون هذه الإشارات معينة علىٰ معرفة هذا السر، وعلىٰ أي حال فلا مناص ـ للفوز بنظائر هذه الحقائق الصادرة بلغةِ الإنسان الكامل عن أهل بيت العصمة والوحي ـ من الرجوع إلىٰ الأستاذ العارف بهذه اللغة، لأن من المحذور بيان الأسرار بالأقوال، وإذا كشف اللسان عن بعضها وقع الضرر ولذلك قالوا: «يضحي العارف برأسه لكي لا يبوح بالسر».

نرجع إلىٰ موضوع هذا الفصل، فإني ـ وأنا أقل العباد ـ استخرجتُ مجموعة من الآيات من النوع المذكور، وقد حالفني توفيق تلاوة ختمة كاملة من القرآن الكريم، وها أنا أنقلُ شطراً منها تبركاً في هذه الصحيفة وضمن أربعين فقرة مقرونة بإشارات إلىٰ بعض دقائق حقائقها تحت عنوان «تبصرة» في بعض الفقرات، رغم

= وقال الشيخ في أواخر كتاب الكشكول (ص: ٦٢٥، ط ١): «وروي في الكتاب المذكور عنه ـ يعني: روىٰ العارف الكاشاني في تأويلاته عن الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام أنه خرَّ مغشياً عليه في الصلاة فسئل عن ذلك؟ فقال: ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها». ونقل الفاضل الميبدي في شرح الديوان عن الشيخ السهروردي أنه قال بعد نقل هذه الحكاية عن الصادق عليه السلام «إن لسان الإمام في ذلك الوقت كان كشجرة موسى عند قول إني أنا الله. وهو مذكور في الاحياء في تلاوة القرآن».

أقول: كما روىٰ الفيض الكاشاني هذا الحديث الشريف في الكلمة الخمسين من كتابه «كلمات مكنونة» وورد في هامش الطبعة الهندية أن الآية المشار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وفي قوله عليه السلام «حتىٰ سمعتها من المتكلم بها» سر غريب لأهل السر، وقد روي عن المعصوم عليه السلام في أحاديث أخرىٰ أنه سمع آيات القرآن من الله عز وجل، فمثلاً روىٰ الصدوق (ونقل الحديث المروي في المتن ثم قال:» وفي الحديث (١٣) من كتاب فضل القرآن من الكافي (ج ٢، ص: ٤٤٠) بإسناده عن الزهري قال: قال علي بن الحسين عليه السلام: «لو مات من بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي» وكان عليه السلام إذا قرأ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ يكررها حتىٰ كاد أن يموت.

وروىٰ السيد ابن طاووس الحديث المذكور علىٰ النحو التالي: «فقد روي أن مولانا الصادق عليه السلام كان يتلو القرآن في صلاة فغشي عليه، فلما أفاق سُئل: ما الذي أوجب ما انتهت حالك إليه؟ فقال عليه السلام ما معناه: ما زلتُ أكرر آيات القرآن حتىٰ بلغتُ إلىٰ حالٍ كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها علىٰ المكاشفة والعيان، فلم تقم القوة البشرية بمكاشفة الجلالة الإلهية».

أن القرآن كله ذكر، فإن أحد أسمائه الذكر: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾[1].

١ - ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢﴾[2] (البقرة: ٣١ - ٣٢).

٢ - ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ (البقرة: ٣٧).

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[3] (الأعراف: ١٩ - ٢٣).

● تبصرة [في الكلمات التي تلقاها آدم (ع)]

روىٰ الفيض في تفسير «الصافي» في تفسير الآية الأولىٰ: عن الكافي عن أحدهما عليه السلام: «إن الكلمات:

لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، فتب علي واغفر لي وأنت خير الغافرين.

لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وارحمني إنك أنت أرحم الراحمين.

لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم»[4].

---

(١) سورة ص: ١.
(٢) يناسب هذا الذكر طلب الزيادة من العلوم والمعارف الإلهية والتنور بها. [المترجم].
(٣) من الأذكار العميقة المناسبة لطلب التوبة والمغفرة. [المترجم].
(٤) الكافي، ج ٨: ٣٠٤، ح ٤٧٢.

وقد رويت أحاديث أخرىٰ في تفسير الآية يراجع بشأنها تفسير الصافي في محل الآية، وكذلك في المجلد (١٤) صفحة: ٨٦، من كتاب «الوافي»، وكتاب «تحف العقول».

٣ ـ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[1] (البقرة: ١٢٧).

٤ ـ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾[2] (البقرة: ١٦٣).

٥ ـ ﴿... فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾[3] (البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢).

٦ ـ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ ـ إلىٰ قوله سبحانه ـ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

● تبصرة [اسما الحي والقيوم في الاسم الأعظم]

اعلم أن الأحاديث الشريفة التي تذكر مثلاً أن في هذه الآية أو في هذا الدعاء أو في هذا الذكر يكمن الاسم الأعظم، تذكر آيات أو أدعية يوجد فيها عموماً هذان الاسمان الشريفان أي «الحي القيوم»، فهي مشتركة في ذكر هذين الاسمين. يقول العارف عبد الرزاق الكاشاني في شرح كتاب «منازل السائرين»:

---

(١) لعل أحد الموارد المهمة لهذا الذكر هو التوجه بدعاء الله به بعد الفوز بتوفيق القيام بعملٍ من الصالحات. [المترجم].

(٢) قد يُستفاد من سياق الآية أن هذا الذكر نافع للفوز بالعفو الإلهي من العقوبات الربانية. [المترجم].

(٣) يظهر من التدبر في الآية اللاحقة أن هذا الذكر نافع في استجلاب الخيرات. [المترجم].

«وقد جرب القوم أن الإكثار من ذكر «يا حي يا قيوم يا مَن لا إله إلّا أنت» يوجب حياة القلب». (شرح المنازل، ص: ٣٦، ط١).

والصفات التالية: الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، هي أئمة الصفات الإلهية السبعة وأمهاتها، وصفة الحياة إمام الأئمة، فلا يمكن تصورُ غيره إلا بعد تصور وجود الحي سبحانه وتعالىٰ. وكذلك الحال مع الأسماء المشتقة من هذه الصفات، أي أسماء: الحي - وهو إمامُ باقي الأسماء الستة -، والعالم والمريد والقادر والسميع والبصير والمتكلم. وهذه الأسماء السبعة أئمة باقي الأسماء الإلهية. والحيُ إمام أئمة الأسماء. ومعنىٰ القيوم هو: القائم بذاته والمقوم والمقيم لغيره. و«الإلهية» تعني كونه الرب المطلق: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[2]. فافهمْ.

● **تبصرة [في الاسم الأعظم والإكثار من الذكر]**

ذكرت - وأنا أقل العباد - في النكتة (٤٧٩) من كتاب «ألف نكتة ونكتة» إشارات لطيفة ودقائق شريفة في بيان الاسم الأعظم، وهي وسيلة تامة لذوي النفوس المستعدة، فإن شئت فارجع إليها في (ص: ٢٣٩ - ٢٤٨، ط١)[3]، كما وردت إشارات منظومة لذلك في القصيدة السادسة من ديوان «دفتر القلب» (ص: ٢٩٢ - ٢٩٨)، كما أوردنا توضيحات بشأن الذكر الشريف «يا حي يا قيوم يا مَن لا إله

---

(١) سورة الفاتحة: ٢.

(٢) سورة الزخرف: ٨٤.

(٣) راجع الملحق الأول من ملاحق هذه الرسالة فقد ترجمنا النكتة المشار إليها.

إلّا أنت» في النكتة (٩١٣) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»، فراجعوها في (ص: ٧٥٢، ج٢، ط١)[1].

٧ ـ آخر سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾[2] إلىٰ آخر السورة.

٨ ـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦).

٩ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ـ إلىٰ قوله سبحانه ـ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾[3] (آل عمران: ٧ ـ ٨).

١٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (آل عمران: ١٦).

١١ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ـ إلىٰ قوله سبحانه ـ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ (آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧).

١٢ ـ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ (آل عمران: ٣٨).

١٣ ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ ـ إلىٰ قوله سبحانه ـ

---

(١) تجدها في الملحق الثاني من ملاحق هذه الرسالة.

(٢) لتلاوتها آثارٌ في تقوية الإيمان بالغيب وتقوية روح التوجه والإقبال علىٰ صالحات الأعمال وهي من الآيات الموصوفة بأنها من كنوز العرش كما في حديث النبي ﷺ قال: «قال لي الله تعالىٰ... وأعطيتُ لك ولأمتك كنزاً من كنوز العرش: فاتحة الكتاب وخاتمة سورة البقرة» (تفسير كنز الدقائق، ج ٢، ص:٤٨٥) وفيه أيضاً عن ثواب الأعمال عنه ﷺ قال: «مَن قرأ أربع آيات من أول البقرة، وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثَ آيات من آخرها لم يرَ في نفسه وفي ماله شيئاً يكرهه ولم يقربه الشيطان ولا ينسىٰ القرآن». [المترجم].

(٣) يستفادُ من التدبر في الآيتين أن هذا الدعاء القرآني نافعٌ في تقوية الإيمان والنجاة من الفتن الفكرية والشبهات واللوابس. ويمكن التعرف في آثار سائر الأذكار والأدعية القرآنية الأخرىٰ التي نقلها المؤلف من خلال التدبر في نصوص الآيات الكريمة نفسها ومن الأحاديث الشريفة المروية بشأنها. [المترجم].

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٤٧) فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٤٨)﴾ (آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨).

١٤ ـ ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١٤)﴾ (المائدة: ١١٤).

١٥ ـ ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٧٩)﴾ (الأنعام: ٧٩). على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام.

١٦ ـ ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (١٦٣)﴾ (الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣).

١٧ ـ آية السخرة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ـ إلىٰ قوله سبحانه ـ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤ ـ ٥٦).

● تبصرة [تلاوة آية السخرة تورث اليقين والطمأنينة]

طبقاً لما ورد في نص حديث المعصوم في الحديث الأول من باب «ما يفصل به بين دعوىٰ المحق والمبطل في أمر الإمامة» من كتاب الحجة من أصول الكافي (ج ١، ص ٢٧٩)؛ فإن تلاوة آية السخرة تثمر صفاء النفس وطمأنينتها بالإسلام والإيمان، وتنوّر القلب باليقين ودفع شر الشياطين ونفي الخواطر. راجعوا تفصيل ذلك في النكتة (٩٧٨) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»، (ص: ٧٩٩ ـ ٨٠٢، ط١)[1]، فقد نقلتُ فيها

---

(١) راجع الملحق الثالث من ملاحق هذه الرسالة.

الأحاديث الشريفة المروية بشأنها مع ذكر مصادرها ونقل أقوال مشائخ العلم بهذا الشأن:

آية السخرة وسيلة تسخير المسخرين

أو هي اللجام الذي يُلجم به مَن يمكن أن يُلجم[1]

١٨ ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ـ إلىٰ قوله سبحانه ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (الأعراف: ٨٥ ـ ٨٩).

١٩ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (آخر سورة التوبة).

٢٠ ـ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ ـ إلىٰ قوله سبحانه ـ ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (يونس: ٨٣ ـ ٨٦).

٢١ ـ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ (يوسف: ١٠١).

٢٢ ـ ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (الرعد: ٣٠).

---

(١) ترجمة نثرية لبيت بالفارسية.

٢٣ - ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ (إبراهيم: ٤٠ ـ ٤١).

٢٤ - ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ (الإسراء: ٧٩ ـ ٨٠).

● تبصرة [في دعاء صاحب المقام المحمود]

قال صاحب «الفتوحات المكية» في آخر الباب (١٨) وهو «في معرفة علم المتهجدين»، في تفسير هذه الآية الكريمة: «واعلم أن المقام المحمود الذي للمتهجد يكون لصاحبه دعاء معيّن وهو قول الله لنبيه ﷺ يأمره به: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾الآية». ثم ذكر جملة من الحقائق الدقيقة في تفسير الآية. فراجع[1].

٢٥ - ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ (الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨).

---

(١) يقول ابن عربي في الباب المذكور من الفتوحات المكية (ج ١، ص: ١٦٥):
«واعلمْ أن المقام المحمود الذي للمتهجد يكونُ لصاحبه دعاءٌ معينٌ، وهو قول الله لنبيه ـ صلى الله عليه [وآله] وسلم ـ يأمره به ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني لهذا المقام، فإنه موقف خاصّ بمحمدٍ يحمد الله فيه بمحامد لا يعرفها إلا إذا دخل ذلك المقام.
﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: إذا انتقل عنه إلى غيره من المقامات والمواقف أن تكونَ العنايةُ به معه في خروجه منه كما كانت معه في دخوله إليه.
﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ من أجل المنازعين فيه، فإن المقام الشريف لا يزالُ صاحبُهُ محسوداً، ولما كانت النفوسُ لا تصل إليه تطلبُ وجهاً من وجوه القدح فيه تعظيماً لحالهم التي هم عليها حتىٰ لا ينسب النقص إليهم عن هذا المقام الشريف. فطلب صاحبُ هذا المقام النصرةَ بالحجة التي هي السلطان على الجاحدين شرف هذه المرتبة ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

٢٦ ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ (آخر سورة الإسراء).

٢٧ ـ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ (الكهف: ٩، ١٠).

٢٨ ـ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنبياء: ٨٣، ٨٤).

٢٩ ـ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨).

● تبصرة [في ذكر اليونسية]

تقدم حديث الإمام الصادق عليه السلام فيما يرتبط بالذكر اليونسي والأذكار الثلاثة الأخرىٰ الواردة في ثلاث آيات أخرىٰ، وراجعوا أيضاً بشأن الذكر اليونسي النكتة (٧٥٤) من كتاب (ألف نكتة ونكتة)[١].

● تبصرة [في معنى النون]

وثمة نكتةٌ مهمة للغاية في هذه الآية الكريمة وهي ترتبط بكلمة «النون»، إذ وُصف يونس عليه السلام بأنه «ذو النون»، والنون هو الحوت

(١) راجع الملحق الرابع من ملاحق هذه الرسالة.

كما تصرح بذلك الأحاديث الشريفة. وقد تصدر حرف النون (ن) سورة القلم: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾، وجاء في آخرها قوله سبحانه: ﴿... وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾[1]، وهذه النعمة ـ أو أحد مصاديقها ـ هو الذكر اليونسي المذكور آنفاً. وفي سورة الصافات قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾ (الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨).

فالتسبيح المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾، هو الذكر اليونسي المبارك المذكور. وقد روىٰ القمي في تفسير سورة يونس: «وقد سأل بعضُ اليهود أمير المؤمنين عليه السلام عن سجنٍ طاف أقطار الأرض بصاحبه؟ فقال: يا يهودي، أما السجن الذي طاف أقطار الأرض بصاحبه، فإنه الحوت الذي حُبسَ يونس في بطنه... ـ إلىٰ أن قال عليه السلام ـ: فنادىٰ في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجاب له وأمر الحوت أن يلفظه، فلفظه إلىٰ ساحل البحر... الحديث»[2].

وعن الباقر عليه السلام قال: «لبث يونسُ في بطن الحوتَ ثلاثة أيام، ونادىٰ في الظلمات ـ ظلمة بطن الحوت وظلمة الليل وظلمة البحر ـ: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

---

(١) سورة القلم (ن): ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج ١، ص:٣١٨ ـ ٣١٩ الطبعة الثانية.

فاستجاب له ربُّهُ فأخرجه الحوت إلىٰ الساحل. . . الحديث»[١].
(تفسير الصافي، في تفسير سورتي القصص وص).

روى ثقات الرواة حديث حسن الجمال الصمدي.
فجاءت الرواية بمائة سندٍ علىٰ مائتي صورة!
يكفي في ظلمات قلب النون في ليلة ذي النون
ذكرُ يونس وهو في قلب الحوت[٢]

أما الآن فتدبروا في هذه الطائفة من الأحاديث الشريفة المروية بشأن معاني حرف النون (ن) ومراتبها ومظاهرها:

في تفسير الدر المنثور، في قوله تعالىٰ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾ عن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: إن أولَ ما خلق الله القلم والحوت، قال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: كل شيءٍ كائن إلىٰ يوم القيامة» ثم قرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾، فالنون الحوتُ، والقلم القلم[٣].

وعن النبي ﷺ قال: «إن أول شيءٍ خلق اللّٰهُ القلمَ ثم خلق النون وهي الدواة، ثم قال له: اكتب. . . الحديث» (بحار الأنوار، ج١٤، ص: ٩١. والدر المنثور في تفسير سورة القلم).

وفي مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «(ن) نهرٌ في الجنة، قال له الله: كُنْ مداداً فجمد، وكان أبيضَ من اللبن وأحلىٰ من الشهد، ثم قال للقلم: اكتب، فكتب القلم ما كان وما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة»[٤].

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج١، ص: ٣١٩.
(٢) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.
(٣) راجع علل الشرائع: ٤٠٢، ح ٢، مجمع البيان ج ٥: ٣٣٢.
(٤) مجمع البيان، ج ٥: ٣٣٢.

وفي الخصال عنه عليه السلام قال: «لرسولِ الله صلى الله عليه وآله عشرة أسماء، خمسة في القرآن وخمسة ليست في القرآن، فأما التي في القرآن: محمد وأحمد وعبد الله ويس ون. .»[1].

وفي الاختصاص: «سأل ابنُ سلاّم النبي صلى الله عليه وآله عن ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾؟ قال: النون اللوحُ المحفوظ والقلم نورٌ ساطع، وذلك قوله: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾. . الخبر»[2].

وفي معاني الأخبار بإسناده عن إبراهيم الكرخي قال: «سألتُ جعفر بن محمدعليه السلام عن اللوح والقلم، فقال: هما ملكان»[3].

وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ قال: لوحٌ من نور وقلمٌ من نور يجري بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»، وعن ابن عباس قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: النون اللوح المحفوظ والقلمُ من نور ساطع» (بحار الأنوار، ج١٤، ص:٩١، والدر المنثور في تفسير سورة القلم).

وقال النيسابوري في تفسير غرائب القرآن: «وعن بعض الثقات: إنٰ أصحاب السحر يستخرجون من بعض الحيتان شيئاً يكتبون منه، فيكون النون ـ وهو الحوت ـ عبارة عن الدواة، ويعضده ما روي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: أول شيء خلق الله القلم، ثم خلق النون وهو الدواة. . . إلخ». وذكر البيضاوي في تفسير «أنوار التنزيل» ما يقرب من ذلك[4].

---

(١) الخصال: ٤٢٦، ح ٢.

(٢) الاختصاص: ٤٥.

(٣) معاني الأخبار: ٢٣.

(٤) أنوار التنزيل، ج ٢: ٤٩٣.

وقد ذكروا في كتب الحيوان أن بعض الأسماك تفرز مادة سوداء بالمقدار الذي يلون ما حولها من ماء البحر باللون الأسود لكي تمنع العدو من العثور عليها، وفي المقابل توجدُ في أعماق البحر أسماك يصدر من بدنها نورٌ يُضيءُ ما حولها. فيا سبحان الله!

كما فُسر حرف (ن) أيضاً بأنه أول صادر وهو حياة الكل وماء حياة الكل؛ جاء في الحديث الشريف: «ن مَلَكٌ يُؤدي إلىٰ القلم وهو ملكٌ، والقلم يؤدي إلىٰ اللوح...»[1]. وعلىٰ أحد الوجوه فإن ما سوىٰ الصادر الأول كالأرض بالنسبة إليه، والنونُ هو الحوت والأرضُ علىٰ ظهر الحوت، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام في بعض الروايات أن اسم الحوت الذي تقع عليه الأرض هو «يهموتُ» وفي بعض النسخ «بلهوت». كما فسرت بعض الروايات الـ (ن) بأنه نهر والنهر بالمداد والمداد بالنور[2].

(ن) أول صادر هي الدواة وهي التي صارت منشأ جميع الكلمات النورية الوجودية، وصار الـ (ن) حوتاً نشأت منه تلك المادة السوداء المركبة، و(ن) الحوت هي ماء حياة الكل وحاملة جميع الأرضيين ووو.

وفسروا الـ (ن) بمداد من نور كُتبتْ به جميع الحروف والكلمات الوجودية، إذن فحيثما حل الوجود كان النور. ومداد الحروف الكتابية مركب أفضل أنواعه الأسود اللون:

القرآن كتابةُ آيات عينية، وكل آية منه

فالألف ألوفٌ في العالم العيني وهكذا حال باقي الحروف

---

(١) معاني الأخبار: ٢٣، والحديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) راجع تفسير كنز الدقائق، ج ١٣، ص: ٣٧١ ـ ٣٧٣.

فهي ألوفٌ ألوف

لتكن حروفه الكتابية سوداء

فحروفه العينية هي أنوارٌ إلهية[1]

إن الصادر الأول بحسب سلم العروج هو الحقيقة المحمدية ـ صلىٰ الله علىٰ صاحبها وآله وسلم ـ، وأحد أسماء النبي الخاتم ﷺ هو (ن)، والنون هو الصادر الأول الحامل للأرض، بمعنىٰ أنه الرِق والنور المنشور الذي تنتقش عليه الكلمات النورية والوجودية: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[2]؛ ولا يخفىٰ أن حياة الحوت بالماء: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[3]. يقول المرحوم المير [محمد باقر الداماد الحسيني] في مطلع كتاب «الجذوات»:

عينانِ عينانِ لم يحفظهما رَقَمُ   في كل عينٍ من العينين عينانِ

نونانِ نونان لم يكتبهما قَلَمُ   في كل نونٍ من النونينِ نونانِ

وللنون خمس مراتب مثل: الحمد والذكر وأقسام النكاح وأنواع القيامة والقلب والحضرات. تُراجع فيما يرتبط بهذا الموضوع النكتة (٦٦٣) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»، (ص:٤٥٤ ـ ٤٥٦، ج١، ط١)[4]، والفصل (٣٣) من كتاب «تمهيد القواعد» في شرح «قواعد التوحيد» حيث قال: أقول: الثالث والثلاثون منه مطلوب أيضاً (ص:٩٣ ـ ٩٧، ط١)، كما أن العرشَ خمسةُ عروش، ومن المفيد الرجوع إلىٰ رسالة «عقلة المستوفز» للشيخ العارف محيي الدين بن العربي فيما يرتبط بأقسام العرش الخمسة، وكذلك في

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

(٢) سورة يس: ١٢.

(٣) سورة هود: ٧.

(٤) راجع الملحق الخامس من ملاحق الرسالة.

معرفة النون واللوح والقلم؛ ومَن أراد المزيد من التفسير والتوضيح لمعاني النون والحوت واللوح والقلم، فليراجع شرحنا لكتاب «الفصوص» للفارابي في شرح الفص الثامن والخمسين منه.

روىٰ السيوطي في الجامع الصغير عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«دعوةُ ذي النون إذْ دعا بها وهو في بطن الحوت:

لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين.

لم يدع بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قط إلا استجاب الله له».

● **تبصرة [الذكر اليونسي طريق إلى أنوار الشريعة والطريقة والحقيقة]**

عنون الشيخ العارف محيي الدين بن العربي الفص اليونسي من كتابه «فصوص الحكم» بعنوان هو: حكمة نفسية في كلمة يونسية. والفص اليونسي واقع ضمن دائرة الذكر والذاكر والمذكور بحكم اشتماله علىٰ الذكر اليونسي.

وللشارح القيصري تحقيق قيم في بيان سر اختصاص الحكمة النفسية بالكلمة اليونسية، ومضمونه هو حسب ترجمتي له وأنا أقل العباد هو[1]:

«اعلم أن النفس الناطقة الإنسانية مظهر الاسم الجامع الإلهي، فهي من حيث إنّها كذلك برزخٌ للصفات الإلهية والكونية والمعاني الكلية والجزئية؛ ولهذا البرزخية تعلقت بالأبدان، إذْ البرزخ لا بد أن يكون فيه ما في الطرفين، فجمعت بين ما هو روحاني محض ومعنىٰ صرف مقدس عن الزمان والمكان منزه عن التغير والحدثان، وبين ما

---

(١) نقلنا نص كلام القيصري من شرحه لفصوص الحكم.

هو جسماني طلق محتاج إلىٰ المكان والزمان متغير بتغيرات الأزمان والأكوان، فتم لها العالم العلوي الروحاني والسفلي الجسماني فصارت خليفة[1] في ملكها مدبرة لرعاياها.

ولهذا المعنىٰ أورد الشيخ - رضي الله عنه - بعد الحكمة السليمانية والداودية تتميماً لما يتعلق به الخلافة وإنما قارنها بالكلمة اليونسية، لأنه كما ابتلاه الله بالحوت في اليم كذلك ابتلىٰ النفس بالتعلق بالجسم. وكما أنه نادىٰ في الظلمات ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، وقال تعالىٰ فيه: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3]، كذلك توجهت النفس أيضاً في عين ظلمات الطبيعة والبحر الهيولاني والجسم الظلماني إلىٰ ربها، فانكشفت لها وحدانية الحق وفردانيته، فأقرت بها واعترفت بعجزها وقصورها، فأنجاها الله من مهالك الطبيعة، وأدخلها في أنوار الشريعة والطريقة والحقيقة في مقابلة الظلمات الثلاث[4]، ورزقها النعيم الروحاني في عين الجحيم الجسماني.

ولمناسبات أخر[5] بين النفس وبينه من ابتلاع حوت الرحم النطفة المشتملة علىٰ روحانية النفس المجردة وأنوارها وكونها في الظلمات الثلاث التي هي: الرحم والمشيمة والجلد الرقيق الذي فيه

---

(١) ترجمها المؤلف هنا بعبارة: فصارت خليفة الله.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٣) سورة الأنبياء: ٨٨.

(٤) قال المؤلف عن هذه الظلمات الثلاث إنها: ظلمات الطبيعة والبحر الهيولاني والجسم الظلماني، ونقل حديث رسول الله ﷺ: «الشريعة أقوالي والطريقةُ أفعالي والحقيقةُ أحوالي».

(٥) قال المؤلف عن هذه الفقرة من ترجمته للنص ما حاصله: وللمقارنة بين الكلمة اليونسية والحكمة النفسية مناسبات أخر بين النفس وبينه أي يونس عليه السلام.

الجنين، وغيرها من المعاني الجامعة بينهما التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم»[1].

٣٠ ـ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠).

٣١ ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ (المؤمنون: ١٠٩).

٣٢ ـ آية النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ـ إلى قوله تعالى ـ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ (سورة النور: ٣٥).

والإكثار من تلاوة آية النور والاستمرار علىٰ تلاوتها يثمرُ انكشاف الحقائق، كما أنها بحدِّ ذاتها نورٌ، نور العين وعين النور، وتلاوتها علىٰ وفق آدابها نورٌ علىٰ نور، كما أن عددها نور، وتلاوتها بهذا العدد ـ المطلوب بشروطه عند الخواص ـ يثمر شرف الفوز بحضور باهر النور المولود في عام النور. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم اجعل لي في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً»[2].

وثمة مطلب آخر بهذا الشأن مسطور في النكتة (٧٣٧) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»[3].

---

(١) شرح فصوص الحكم: ٩٧٣ ـ ٩٧٤.

(٢) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي، ١٨٠ ضمن آداب النوم، وكذلك ص:٦٨٩.

(٣) قال المؤلف في النكتةِ (٧٣٧) المشار إليها:

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: ٢١].

اسعَ لكي تكون أنت ذلك الكتاب المرقوم المشهود، بمعنىٰ اسعَ إلىٰ أن تكون «مقرباً»، فإذا =

٣٣ - ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ (الفرقان: ٧٤).

● تبصرة [في منهج سورة الفرقان لعمل أهل البصائر]

تشتمل الآيات الأواخر من سورة الفرقان المباركة - من قوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا. . .﴾[1] إلىٰ آخر السورة - علىٰ منهاج عام لعمل أهل البصائر، وفقنا الله سبحانه للعمل - في جميع شؤون حياتنا - بالقرآن الكريم الزاخر بكل هذه المناهج العملية الإلهية للمدينة الفاضلة والإنسان الرباني إذْ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[2]، ومثلما يوجد لكل وسيلة مصنوعة كتاب أو نشرة تبين كيفية حفظها وصيانتها، كذلك الحال مع الإنسان - وهو أعظم الصنائع الإلهية -، فقد جعل صانعه العظيم كتاباً اسمه «القرآن» يبينُ أوامر ووصايا خالق الإنسان بشأن سبل حفظه بالصورة السليمة وإيصاله إلىٰ الكمال والسعادة. والله سبحانه ولي التوفيق.

= صار ذلك الكتاب مشهوداً لك؛ اطلعت عن العين الثابتة لك وللآخرين.

ولحضور القلب وتوجهه والمراقبة أثرٌ أساسي في تحقق ذلك، قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل لي في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً»، فإذا حالفك توفيق الحصول علىٰ هذا النور فهنيئاً لك.

يا عزيزي؛ اجتهد بجدٍّ في السعي للعثورِ علىٰ إنسان كاملٍ لكي يسلك بك علىٰ الصراط المستقيم وينقلك من حضيض النقصان إلىٰ ذروة الكمال. واسمعْ هذا البيت مني - وأنا أقل العباد -: [وترجمته النثرية]:

عندما تنزل بتحفةِ الروح
في منزل سلوك طريق الوصول إلىٰ قرب الحبيب
فاعثرْ علىٰ الرفيق الحبيب بأنواع العطايا والتحف

وعليك أيضاً أن لا تغفل عن تلاوة آية النور وعددها «نور»، فهي نور العين وعين النور. وتلاوتها بآدابها نورٌ علىٰ نور

(١) سورة الفرقان: ٦٣.

(٢) سورة الإسراء: ٩.

يا أخي؛ إن جنبتك المُلْكية مع عالم المُلْك، وجنبتك الخيالية مع عالم المثالية، وعقلك مع عالم العقول؛ فأنت مستعد بالقوة للحشر في جميع هذه العوالم ولديك رأسمال الذي يؤهلك لاكتساب الجميع، يقولُ صادق آل محمد ـ صلوات الله عليهم ـ:

«إن الله عزّ وجلّ خلق مُلْكه علىٰ مثال ملكوته وأسس ملكوتَهُ علىٰ مثالِ جبروته ليُستدل بملكه علىٰ ملكوته وبملكوته علىٰ جبروته»[1].

فاقرأ جيداً وافهمْ بالصورة الصحيحة.

٣٤ ـ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ ـ إلى قوله سبحانه ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ (الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥).

٣٥ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ (النمل: ٢٦).

● تبصرة [في آيات الاسم الأعظم]

نقل العالم الجليل السيد علي خان الشيرازي المدني في كتاب «الكلم الطيب» أن الاسم الأعظم لله تعالىٰ هو الذي يُفتتح بـ «الله» ويُختتم بـ «هو» وتكون حروفه بلا نقاط ولا تتغير قراءتُهُ أُعرِبَ أم لم يُعرب. والموجود علىٰ هذا النحو في القرآن المجيد هو في خمس سور: البقرة وآل عمران والنساء وطه والتغابن.

أقول: الموجود بهذا النحو ستُ آيات في ست سور أحدها آية سورة النمل التي نقلناها آنفاً:

---

(١) لم نجده في المصادر التي بين أيدينا.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ (آية الكرسي، البقرة: ٢٥٥).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ...﴾ (آل عمران: ٢، ٣).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ...﴾ (النساء: ٨٧).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ (٨)﴾ (طه: ٨).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ (٢٦)﴾ (النمل: ٢٦).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (١٣)﴾ (التغابن: ١٣).

بل ينبغي القول بأن الاسم الأعظم هذا موجود في سبع آيات من آيات القرآن الكريم، فالآية السابعة هي الآية (٦٢) من سورة غافر المباركة وهي نفسها سورة المؤمن، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (٦٢)﴾. (راجع النكتة (٤٧٩) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»)[1].

بل إن الاسم الأعظم هذا موجود في ثمان آيات من القرآن الكريم، وذلك بإضافة آية الفقرة (١٩) التي نقلناها من آخر سورة التوبة. كما يمكن العثور علىٰ آيات مشابهة أخرىٰ في القرآن الكريم. فتدبر!

٣٦ - ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ

---

(١) راجع الملحق الأول من قسم الملاحق.

ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾[١] (سورة المؤمن أو سورة غافر: ٧ ـ ٩).

●● تبصرة [في استغفار حملة العرش للمؤمنين]

يصرح الحق سبحانه في هذه الآية الكريمة بأن حملة العرش ومَن حوله يستغفرون للمؤمنين، وهو يقول في أول سورة الشورىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾[٢]، ويقول أيضاً في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ (الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣).

ومعنىٰ ذلك أن مخرج النفوس الإنسانية من النقص إلىٰ الكمال ـ أي من نقص الظلمات إلىٰ كمال النور ـ هو ذلك الاستغفار وهذه الصلاة، كما قال سبحانه: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾.

٣٧ ـ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ـ إلى قوله سبحانه ـ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[٣] (الحشر: ٨ ـ ١٠).

٣٨ ـ الآيات السبع الأولىٰ من سورة الحديد المباركة: بسم

---

(١) يُستفاد من هذه الآيات أن الدعاء والاستغفار للمؤمنين والآخرين من أخلاق صفوة ملائكة الله، وعليه فإن التزام المؤمن بذلك يقوي فيه الروح الملائكية والجنبة الروحانية. [المترجم].

(٢) سورة الشورىٰ: ٥.

(٣) تلاوتها مؤثرة في تأليف قلوب المؤمنين وإزالة الغل تجاه بعضهم بعضاً منها، وهذه من صفات أهل الجنة، ويُستفاد منها أن الاستغفار لمن يدخل القلب بعض الأذىٰ منه من المؤمنين سبب لإزالة هذا الأذىٰ وتطهير القلب من بغض المؤمنين ومنع تحول الأذىٰ من أحدهم إلىٰ حقد لا سمح الله. [المترجم].

الله الرحمن الرحيم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ـ إلىٰ قوله سبحانه ـ ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

● تبصرة [في عمق التوحيد القرآني]

روىٰ ثقة الإسلام الكليني في باب «النسبة» من أصول الكافي (ج ١، ص ٧٢) بإسناده عن عاصم بن حميد قال: «سُئل علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد؟ فقال: إن الله عزّ وجلّ علِمَ أنه يكون في آخر الزمان أقوامٌ متعمقون، فأنزلَ الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ والآيات من سورة الحديد إلىٰ قولِهِ: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فمَن رامَ وراء ذلك فقد هلك».

والسرّ هو أن عجز أعراب البادية كان يمنعهم عن فهم آية ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[1] ولكن أمثال الأستاذ صدر المتألهين يفهمونها، يقول صدر المتألهين: «كنتُ أفكرُ باستمرار في هذه الآيات وأتدبّر فيها إلىٰ أن قرأتُ هذا الحديث فبكيتُ شوقاً».

● تبصرة [في وصية علوية لتلاوة أوائل الحديد وأواخر الحشر]

هذه التبصرة عبارة عن منهج عملي بتلاوة المسبحات الست وهي السورُ التي تبتدىء بعد البسملة بأفعال: سَبّحَ، ويُسبّحُ، وسبّحْ وهي سور: الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلىٰ. وما ينبغي أن أقوله بهذا الخصوص قد قلته في النكتة (٧٥٤) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»، فلتُراجع[2]. رزقنا الله وإياكم توفيق اليقظة والمراقبة والحضور والذكر والدعاء والمناجاة.

---

(١) سورة الحديد: ٣.

(٢) راجع الملحق الرابع من ملاحق الرسالة.

أما هنا فينبغي أن أقدم للعارفين بقيمةِ الأشياء منهاج عملٍ قيمٍ وقيم للغاية كأفضل تحفة وهدية، وهو ما تضمنته الرواية التالية التي نقلها القاضي القضاعي في كتاب «دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام»؛ ونص الرواية هو:

عن البراء بن عازب، قال:

«دخلتُ على علي عليه السلام فقلتُ: يا أمير المؤمنين، سألتكُ بالله إلاّ خصصتني بأعظمِ ما خصك به رسولُ الله ﷺ مما خصه به جبرائيل مما أرسله به الرحمن عز وجل.

فقال: لولا ما سألتَ ما نشرتُ ذكر ما أريدُ أن أستره حتىٰ أُضمَّنَ لحدي. إذا أردت أن تدعو باسم الله الأعظم فاقرأ من أول الحديد ستَّ آيات وآخر الحشر ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلىٰ آخرها. فإذا فرغتَ فتكلمتَ فقل: يا من هو كذلك افعل بي كذا وكذا. فواللّهِ لو دعوتَ به علىٰ شقي لسعد.

قال البراء: فواللّهِ لا أدعو بها لدنيا أبداً. قال علي عليه السلام: أصبت، كذا أوصاني رسول الله ﷺ غير أنه أمرني أن أدعو بها في الأمور الفادحة».

واعلم أنه لا توجد حاجة للإنسان أسمىٰ وأعز من الفوز بقرب الله إذْ أن فيه الفوز بلقاء الله. ورسالتنا المسماة «لقاء الله» هي زادٌ لطريق الوصول إلىٰ هذه الغاية.

٣٩ ـ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ ـ إلى قوله سبحانه وتعالى ـ ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ (الممتحنة: ٤ ـ ٥).

٤٠ ـ ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ (آخر سورة نوح).

هذه أربعون كلمة مباركة مؤثرة انتخبتها ـ وأنا العبد ـ وقد ينتخبُ غيري غيرها إذ أن للقرآن تجلياً خاصاً لكل نفس متأهلة، وكل مستعد يحصل من هذه المأدبة الإلهية ما يناسبه وينتفع منها بما يتناسب وسعته الوجودية[1].

(١) والمهم أن يهتم المؤمن بأن يعرض شؤونه وحالاته المختلفة على القرآن الكريم ويتدبر في آياته الكريمة، ليعرف ما يناسب منها حالاته وأوضاعه واحتياجاته المختلفة ويسد بها فقره ويستشفي به من أمراضه المختلفة، مستعيناً في كل ذلك بإخلاص النية في التنور بكتاب الله ومنهجه القويم، ومستعيناً بإضاءات أحاديث أهل بيت الوحي عليهم السلام العارفين بأسرار القرآن وهداة المؤمنين إلى حقائقه. [المترجم].

الفصل الثاني:

اشتمال أدعية أهل البيت (ع) على حقائق لا توجد في أحاديثهم

[أدعية أهل البيت (ع) مناجاة لله بكنه عقولهم]

كل دعاء من الأدعية المأثورة عن أئمة الدين يمثلُ مقاماً من مقاماتهم الإنشائية والعلمية. ولا توجد في أحاديثهم ما يكمن في أدعيتهم وما يُستفاد منها من لطائف الشوق العرفاني والمقامات الذوقية والشهودية، وذلك لأنهم عليهم السلام يخاطبون في أحاديثهم الناس فيكلمونهم بما يناسب عقولهم لا بكنه ما يعقلونه هم عليهم السلام، روي في الكافي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «ما كلّم رسول الله صلى الله عليه وآله العباد بكنه عقله قط»[1]. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» (سفينة البحار، ج٢، ص: ٢١٤، مادة عقل، عن وط: ١٦١)[2].

أما في أدعيتهم ومناجاتهم فهم يخاطبون محبوبهم الحقيقي وهو

(١) أصول الكافي، ج ١، ص:١٨.
(٢) المصدر السابق.

الجمال والجلال والحسن المطلق، ويبثون في حضرته ما في قلوبهم ويتضرعون له، ولذلك فقد كانوا يدعون ويناجون بكنه عقولهم ويفصحون عن مكنون آدابهم في حضرة صاحب السرّ وبيت الحب الخالص وهو البيت المعمور. فمثلاً نقل السيد ابن طاووس في كتاب «المجتنىٰ» (ص: ٢٣، ط٩) ما نصه:

«الدعاء المروي عن مولانا علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام:

يا بديءُ يا بديعُ، يا قويُ يا منيع، يا عليُ يا رفيع، صلِّ على مَن شَرَّفْتَ الصلاةَ بالصلاة عليه».

[خصوصيات دعاء عرفة والزيارة الجامعة والدعاء الرجبي]

إن دعاء الإمام سيد الشهداء عليه السلام في التوحيد الخالص في يوم عرفة هو عديلُ دعاء زيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام علي النقي عليه السلام وهي في الولاية وبيان مقام الإنسان الكامل، فهما يبينان هذين الأصلين الأصيلين والعمادين الراسخين للمعارف الإنسانية.

أما التوقيع المبارك الصادر عن بقية الله ـ عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف ـ في بيان مقام الإنسان فهو نص جديرٌ بأن يُقال بشأنه «كل الصيد في جوف الفرا». وقد شرحَ بعضَ فقراته الشيخ العارف رجب البرسي في كتابه «مشارق أنوار اليقين» (ص: ١٣٩، ط بمبي)، بل وقد شرحَهُ أحد المتقدمين من العلماء، وتوجد نسخة من الشرح لدىٰ كاتب هذه السطور؛ مثلما كُتبت الكثير من الشروح للزيارة الجامعة. رزق الله الجميع توفيق الفوز بلباب الصحف المكرمة الصادرة عن أهل بيت العصمة ومعدن الوحي.

وقد روىٰ هذا التوقيع الشريف السيدُ الأجل ابن طاووس في كتاب «الإقبال» بإسناده وعلىٰ النحو التالي: «ومن الدعوات في كل

يومٍ من رجب ما رويناه أيضاً عن جدي أبي جعفر الطوسي - رضي الله عنه - فقال: أخبرني جماعة عن ابن عيّاش، قال: مما خرج علىٰ يد الشيخ الكبير أبي جعفر محمد بن عثمان بن سعيد - رضي الله عنه - من الناحية المقدسة، ما حدثني به خير بن عبد الله، قال: كتبته من التوقيع الخارج إليه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، أدع في كل يومٍ من أيام رجب:

اللهم إني أسألكَ بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك، المأمونون علىٰ سرك، المستبشرون (المستسرون - خ) بأمرك، الواصفون لقدرتك، المعلنون لعظمتك.

وأسألك بما نطق فيهم من مشيتك، فجعلتهم معادن لكلماتك وأركاناً لتوحيدكِ وآياتكِ ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان، يعرفك بها من عرفك، لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك... إلخ»[1].

وقد ورد التعبير عنهم عليهم السلام في موضع من الدعاء بضمير «هم»: «فجعلتهم معادن لكلماتك»، وفي موضع آخر بضمير «ها»: «لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك»، وذلك انسجاماً مع قول الحق سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ (البقرة: ٣١)، فافهم[2]!

---

(١) الإقبال: ٦٤٦ من الطبعة القديمة، وقد نقل هذا الدعاء الجليل الشيخ القمي في أعمال شهر رجب من كتاب مفاتيح الجنان.

(٢) راجع في المقام تفسير العلاّمة الطباطبائي للآية في تفسير الميزان، ج ١، ص:١١٦ - ١١٨، ولعل سر الاختلاف في استخدام ضمير «ها» في الموقع الأول و«هم» في الموقع الثاني هو أن الأول يتعلق بالحقائق الملكوتية لهم عليهم السلام كأسماءٍ، والثاني تعبير عن وجوداتهم عليهم السلام المتنزلة عن تلك الحقائق الملكوتية. [المترجم].

والأعجب من ذلك قوله عليه السلام: «لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك»، وهذا هو المعنىٰ نفسه الذي اشتمل عليه قولهم - وهم وسائط نزول الفيض الإلهي - عليهم السلام: «نزلونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم»[1].

[منزلة الإنسان الكامل في عالم الوجود]

أجل، هكذا هو حال الإنسان - المسمىٰ باصطلاح الصحف العرفانية «الكون الجامع» - إذ انتقل من مرتبة «الغماء» إلىٰ مقام «العماء» وحاز مقام البرزخ بين الغيب المطلق ومرتبة الأحدية؛ أي البرزخ الجامع بين حضرة الوجوب وحضرة الإمكان، وصاحب القلب الأحدي الجمعي. ومثلما أن اسم الجلالة هو إمام أئمة الأسماء وقبلتها وكعبتها؛ فإن هذا الإنسان «الكون الجامع» هو المظهر الأتم لهذا الاسم الشريف، فهو المعنىٰ الحقيقي لصفةِ «آية الله» والمنطبق عليها بالكامل، ولذلك فهو إمام الكل وقبلتهم وكعبتهم:

«الكامل» هو الكعبة والكل يطوفون حوله
فانظرْ لتعرف ماهية مقام مظهر اسم الجلالة[2]

فمثلاً قالوا بشأن الحضرات الخمس إنها: حضرة الغيب المطلق، وحضرة الشهادة المطلقة، وحضرة الغيب المضاف، وحضرة الشهادة المضافة، وحضرة الكون الجامع.

أو أنهم قالوا بشأن أقسام النكاح الخمسة: إن أولها هو التوجه

---

(١) في كتاب الاحتجاج للطبرسي (ج ١، ص: ٢٣٣) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا تتجاوزوا بنا العبودية وقولوا فينا ما شئتم».

(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

الإلهي الذاتي من حيث أوائل الأسماء الأصلية، وهي مفاتيح غيب الهوية الإلهية والحضرة الكونية. أما القسم الثاني فهو النكاح الروحاني، والثالث النكاح الطبيعي الملكوتي، والرابع النكاح العنصري السفلي، والخامس هو المختص بالإنسان وهو مجمع بحري الغيب والشهادة[1].

وما أحسن ما قاله العلامة القيصري في «شرح فصوص الحكم» وهو يقتفي آثار حضرة الإمام بقية الله وتتمة النبوة وقطب الورىٰ، إذْ قال:

«ومرتبة الإنسان الكامل عبارة عن جمع جميع المراتب الإلهية والكونية من العقول والنفوس الكلية والجزئية ومراتب الطبيعة إلىٰ آخر تنزلات الوجود، وتسمىٰ بالمرتبة العمائية أيضاً، فهي مضاهية للمرتبة الإلهية، ولا فرق بينهما إلا بالربوبية والمربوبية. لذلك صار خليفة الله» (المصدر، ص: ١١، ط١).

«والكون الجامع هو الإنسان الكامل المسمىٰ بآدم، وغيره ليس له هذه القابلية والاستعداد» (المصدر، ص: ٦٢).

[خليفة الله هو معدن كلماته]

إذْ أن خليفة الله المتصف بصفات المستخلِف له هو معدنُ كلمات الله. وأعظم شروط الخلافة العلم بجميع المراتب وبأهلِ كل

---

(١) لا يخفىٰ أن المقصود هنا من مفردة النكاح ليس المصطلح الفقهي والطبيعي المألوف، بل المقصود هو: «التوجه الحي»، راجع كتاب اصطلاحات الصوفية للشيخ عبد الرزاق الكاشاني ص:٩٧ بتحقيق الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر، فصل: النكاح الساري في جميع الذراري، وفيه إشارات إلىٰ ما ذكره المؤلف بشأن أقسام النكاح في المراتب المختلفة. [المترجم].

مرتبة والعلم بحقوقهم وأحكامهم، ولذلك فإن الجدير بمقام خليفة الله هو أن يكون مبيناً لحقائق الأسماء علىٰ الإطلاق. بل إن مقام معدن كلمات الله أعلىٰ من مقام خلافة الله لأن مقام الخلافة ناظر إلىٰ النبوة والرسالة والوساطة، فيمكنُ أن يكون الإنسان ولياً كاملاً دون أن يكون من الوسائط. فافهمْ وتدبر ترشد إن شاء الله تعالىٰ.

الفرقان هو ـ ولا غير ـ الصدر الحاوي لكنوز القرآن
فهو وحده الصدر الفضي المتألق علىٰ رأس ركب الأبرار
إن نغمةَ عنقاء المغرب تأتي من جهة «قاف»
إذْ أن مشرق شمس الحقيقة هو قلب الإنسان ولا غير
لأن قرص الشمس والقمر هو في فضاء عالم القلب
وهو وحده ضياء الشمعة التي تخرق الظلمات
غارق في بحر نور الوحدة وهو في خضم كثراته
فحيثما ولىٰ وجهه رأىٰ وجه الحبيب
إنه الماء الدافق للكون الجامع من مرتبته الغمائية إلىٰ المرتبة العمائية
فلوحُهُ «الله» والعقلُ حيران في هذه المسألة(١)

● تبصرة [في خصوصية الشهور الثلاثة]

إن رجب هو شهر الولاية، وشعبان شهر رسول الله، ورمضان شهر الولاية، وأهل الولاية يستعدون مُنذ بداية شهر الولاية لإدراك أسرار شهر الله خاصة ليلة القدر المباركة. فتدبر في صدور التوقيع المبارك المذكور عن الإمام ولي الله ـ عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف ـ وتدبر في قوله: «ادعُ في كل يومٍ من أيام رجب. . .» لتعرف ما قلناه

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

قلناه بأن شهر رجب هو شهر الولاية. وستأتي إشارات لهذا الأمر في الفصل الخامس ضمن الحديث عن تأثير الأوقات علىٰ حالات الذاكر والداعي.

الفصل الثالث:

في أن الله سبحانه رضي بالقليل من كل شيءٍ إلاّ الذكر والدعاء

رضي الله سبحانه من كل شيءٍ بالقليل وعيّنَ له حداً، فمثلاً جعل الصلوات خمساً والصيام شهراً، وجعل للزكاةِ نصاباً معيناً، لكنه لم يحدد للذكر مقداراً معيناً، وهذا هو مضمون الحديث الشريف الذي رواه ثقة الإسلام الكليني في كتاب الدعاء من أصول الكافي بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«ما من شيءٍ إلا وله حدٌّ ينتهي إليه إلّا الذكر فليس له حدٌّ ينتهي إليه؛ فرض الله عزّ وجلّ الفرائض فمَنْ أداهن فهو حدُّهن، وشهر رمضان فمن صامه فهو حده، والحج فمَنْ حجّ فهو حدُّهُ، إلا الذكر فإن الله عزّ وجلّ لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه.

ثم تلا هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[1] فقال: لم يجعل الله عز وجعل له حداً ينتهي إليه...» (ج ٢، ص: ٣٦١).

---

(١) سورة الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢.

[ذكر الله على كل حال]

وعلة عدم جعل حدٍّ للذكر هي أن علىٰ الإنسان أن يجعل جميع شؤون حياته علىٰ وفق الحكم الإلهي، ويكون ذاكراً لله في جميع أحواله مع حفظ المراقبة وحضور القلب[1]: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (النور: ٣٧).

وفي الكافي بإسناده إلىٰ الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«لا بأس بذكر الله وأنت تبول، فإن ذكر الله حسن علىٰ كل حالٍ، فلا تسأم من ذكر الله» (ج ٢، ص: ٣٦٠).

وقد أمرت الشريعة المطهرة بتلاوة أذكار معينة بشأن دخول بيت الخلاء. يُراجع بهذا الشأن كتابنا «إحدىٰ عشرة رسالة» (ص: ٤٤٤، ط ١)[2].

---

(١) المرادُ هنا هو الذكر العملي بمعنىٰ أن يسعىٰ الذاكر في جعل جميع سلوكياته وحركاته وسكناته علىٰ وفق ما يحبه الله سبحانه ويرضاه لعبده، والذكر القلبي واللساني بمعنىٰ دوام التوجه إلىٰ الله عز وجل والاستغراق في مشاهدة مظاهر جلاله وجماله في كل شيء من مظاهر الوجود وكذلك في الحوادث النازلة به. [المترجم].

(٢) قال المصنف في الموضع المشار إليه:

... ومن هذه الأحاديث يكفي حديث الدعاء الذي ينبغي قراءته عند الخروج من بيت الخلاء وهو: «الحمدُ لله الذي أذهب عني الأذىٰ وعافاني»، فالإمام عليه السلام يأمر بحمد الله علىٰ دفع الأذىٰ والمعافاة رغم أن ظاهر الحال هو أن القوة الدافعة في بدن الإنسان هي التي تخرج المدفوع، وفي ذلك إشارة إلىٰ مقام الفناء في التوحيد: «لا إله إلا الله وحده وحده وحده». وفي هذا التكرار إشارة إلىٰ التوحيد الذاتي والصفاتي والإفعالي وليس مجرد التأكيد اللفظي:

هذه الأسباب حجبٌ علىٰ الأبصار

وليس في كل لقاءٍ جزاءٌ علىٰ صنعه

يجب أن تعبر البصيرة الأسباب لكي تخرق الحجب من الأساس

وما لم يُشاهد مسبب الأسباب حيث لا مكان

فكل جهد للمشاهدة عبثٌ ورؤية لأدوات الدكان

وقد نقلنا فقرة الدعاء المتقدم طبقاً لما ورد في نسخة كتاب «القضاء والقدر» للشيخ دهدار، =

● تبصرة [في أن ذكر الله مفتاح المشاهدة]

قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ (طه: ١٤)، وقال رسول الله ﷺ: «جُعلت قرةُ عيني في الصلاة»[١].

والصلاة تثمرُ المشاهدة، ومشاهدة المحبوب هي قرةُ عين المحب، لأن الصلاة مناجاة بين الحق تعالىٰ وعبده، فقد قال عز وجل: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[٢]، وقال رسوله: «المصلي يناجي ربَّهُ»[٣]:

من المصلي؟ إنه الذي يناجي الحبيب

فوا أسفاً!! فأنت لم تعرف سر العبادات

إن طاعتك ـ علىٰ نحو العادة ـ تثمر بعدك عن الحق تعالىٰ

فقربه تعالىٰ؛ هو في التحرر من أسر العادات[٤]

ولأن الصلاة مناجاة؛ فهي إذن ذكرٌ لله سبحانه، ومَن يذكر

= وقد روىٰ المجلسي في باب آداب الخلوة من كتاب الطهارة من بحار الأنوار (ص: ٤١، طبعة الكمباني) أنه «سألوا أبا عبد الله عليه السلام عن حد الخلاء إذا دخله الرجل؟ فقال عليه السلام: إذا دخل الخلاء قال: بسم الله، فإذا جلس يقضي حاجته قال: اللهم أذهب عني الأذىٰ وهنّئني طعامي. فإذا قضىٰ حاجته قال: الحمد لله الذي أماط عني الأذىٰ وهنأني طعامي. الحديث».

وقد رويت أحاديث أخرىٰ بهذا المضمون وقريبٌ منه وجاء فيها: «أماطَ عني الأذى»، بدلاً من «أذهبَ عني الأذىٰ».

(١) فروع الكافي، ٥: ٣٢١، كتاب النكاح، باب حب النساء، الحديث ٧.

(٢) سورة البقرة: ١٥٢.

(٣) راجع وسائل الشيعة ٤: ٣٢ ح ٥ (من طبعة مؤسسة آل البيت ذات الثلاثين جزءاً)، وكذلك المحجة البيضاء ١: ٣٦٦.

(٤) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

الحق تعالىٰ فالحق جليسه[1] وهو يجالس الحق عز وجل، ومَن كانَ جليساً لمن يذكره فهو يراه وإلا لما كان جليساً له، من هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لم أعبد ربّاً لم أره»[2]. إذن فالصلاةُ مشاهدة ورؤية. أي أن الصلاة مشاهدة عيانية روحانية وشهودٌ روحي في المقام الجمعي، وهي رؤية في المظاهر التفريقية، وبعبارة أوجز فإن الصلاة مشاهدة في المقام الجمعي ورؤية في المظاهر التفريقية.

ولكن المصلي لا يرىٰ الحق سبحانَهُ إذا لم يكن ذا بصيرة وعرفان، بل كان جاهلاً بحقيقةِ أن الله يتجلىٰ من كل شيءٍ ولكل شيء.

أما الآن فاعلم أن أحد وجوه تفسير قوله سبحانه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[3]، هو أن ذكر الله في الصلاة هو أكبر وأهم أقوالها وأفعالها فلا يرقىٰ أي جزء من أجزائِها لمرتبة ذكر الله. أما الوجه الآخر فهو أن المقصود هو أن ذكر الله سبحانه لعبده أكبر من ذكر العبد له عزّ وجلّ بالمقدار نفسه، لأن الكبرياء لا تليق إلا به سبحانه. وعلىٰ هذا الوجه تكون هذه العبارة شاملة لذكر الله لعبده وذكر العبد لربه نظير قوله سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[4]. وقوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[5] والوفاق هو مصدر ثانٍ من باب المفاعلة من الطرفين وليس من طرفٍ واحد. فتكون النتيجة أن: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ مصداق لقاعدة: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾.

---

(١) في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني»، إرشاد القلوب للديلمي، الباب ١٣.

(٢) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ٣٠٥، الباب ٤٣، الحديث ١٤، وكذلك كتاب علم اليقين للفيض الكاشاني، ١: ٤٩، المقصد الأول في تنزيهه سبحانه.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٤) سورة البقرة: ١٥٢.

(٥) سورة النبأ: ٢٦.

هذه التبصرة هي ملخص للمسألة رقم (١٢٩) من الباب (٧٣) من «الفتوحات المكية» وكذلك خلاصة لما ورد في الفص المحمدي من «فصوص الحكم».

[أمرٌ نبوي بذكر الصمت]

وقد وقعت حادثةٌ طريفةٌ لأحد الموالين كانت تربطنا به علاقة حميمة، وهي أنه فاز ذات مرة بمصداقٍ للقاء «من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»[١]، فطلب منه ﷺ أن يعلمه ذكراً فقال ﷺ: عليك بذكر السكوت[٢]!!

ووقعت للمؤلف حادثةٌ عجيبة، سجلها في ديوان «دفتر القلب» علىٰ هذا النحو:

أغلقتُ الباب علىٰ نفسي ليلة وجلستُ في زاوية من الدار
كنتُ أفكر - بحيرةٍ وعمق - في المبدأ والمعاد حتىٰ ذهلتُ تدريجياً عن نفسي!
فرأيتهم يخيطون بالإبرة والخيط شفتيّ وأنا أتحرّق جسماً وروحاً
قالوا: إن هذا «جزاءً وفاقاً» لمن يطلق للسانه حرية قول ما يشاء
فإذا سيطرت عليه فلا حاجة لخياطة شفتيك!
لقد آذتني تلك الحالة وذقت اللظىٰ منها
لقد جعلتني أرىٰ جهنمَ وأذوق العذاب البرزخي[٣]

والفص اليونسي من «فصوص الحكم» خاصٌ بالذكر والأدب

---

(١) صحيح ابن حبان، ج ١٣، ص: ٤١٧، مسند الشاميين للطبراني، ج ٣، ص: ٣٩٧.

(٢) بمعنىٰ أن الذكر الذي يصلح حاله ويناسبه هو أن يلتزم الصمت فيكون ذاكراً لله بالصمت وفوائد الصمت كثيرة نبهت لها الكثير من النصوص الشريفة. [المترجم].

(٣) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

مع الله سبحانه وسبب اختصاصه بذلك هو الذكر اليونسي، ويشتمل هذا الفص وشروحه علىٰ الكثير من حقائق الذكر، ولي أنا أيضاً ـ وأنا أقل العباد ـ مباحث نفيسة في شرحه. وللشيخ كلمات دقيقة في فضيلة الذكر وأسراره، منها قوله:

«وما أحسن ما قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبئكم بما هو خيرٌ لكم وأفضلُ من أن تلقوا عدوكم فتضربوا رقابهم ويضرب رقابكم؟ ذكر الله! وذلك أنه لا يعلم قدرَ هذه النشأة الإنسانية إلا من ذكر الله الذكر المطلوب منه، فإنه تعالىٰ جليس مَن ذكره، والجليس مشهود الذاكر، ومتىٰ لم يشاهد الذاكر الحق الذي هو جليسه فليس بذاكر». (المصدر، ص: ٣٨٣، ط١).

[لزوم توجه القلب للمذكور]

اسعَ أن يكون قلبك هو الذاكر فالمهم حضور القلب وتوجهه للذكر، وإلا فإنَّ الذكر بقلبٍ ساهٍ هو جسد بلا روح وشكلٌ بلا محتوىٰ. جاء في الحديث الشريف: «ليس الذكرُ قولاً باللسان فقط»[1]. بل إن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

وقال عزّ من قائل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٢﴾ (الزمر: ٢٢).

وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۝٢٠٦﴾ (آخر سورة الأعراف).

---

(١) سفينة البحار للشيخ القمي، ج ١، ص:٤٨٦، ومستدرك السفينة، ج ٣، ص:٤٤٨.

تدبّر في هذه الآية الكريمة وفي صفات هؤلاء الذين يحظون بالمقام الشامخ الذي تذكره، وهو مقام: ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، فالذين يحظون بهذا المقعد الكريم ويكونون «عند» الجمال والجلال والحسن المطلق، لا يكون لهم ذكر سواه ـ جل وعلا ـ:

يثمرُ الذكرُ في بداية أمره الأنس بالحبيب
ثم يتولد في النهاية من لقاء الحبيب والأنس به
فالطير لا يهوىٰ إلىٰ الأرض إلا بعد أن يرىٰ النبات عليها
يصيرُ السالك العارف طير الحق سبحانه
فيطوي منازل السير والسلوك بذكر الحق سبحانه
وكيف لا يقبل طير الحق علىٰ الحق بعد أن يرىٰ بهاء جماله المطلق
إذا أردت الفوز بالقرب الإلهي فعليك بدوام التوجه إليه سبحانه
وإذا أردت تحقق ما تصبو إليه فلا تغفل عن ذكر الحق سبحانه ولا للحظة
فإذا غفل قلب الإنسان عن ذكر الله
فلن ترىٰ من غفلته سوىٰ الظلمات
والقلب الغافل قاسٍ وعاصٍ
وأنىٰ للقلب العاصي أن يحصل علىٰ الفيض السامي[١].

[الصلاة وسيلة لذكر الله]

تدبّر جيداً في قوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ (طه: ١٤)، لقد جعل الحق تعالىٰ الصلاة وسيلة لذكره، فما معنىٰ ذلك؟ يقول الشيخ البهائي في ختام شرحه الحديث الثاني من كتابه «الأربعون

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

حديثاً»: «قال بعض الأكابر: إنما كان الفكر أفضل لأنه عمل القلب وهو أفضل من الجوارح فعمله أشرف من عملها، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾؟ فجعل الصلاة وسيلة إلىٰ ذكر القلب والمقصود أشرف من الوسيلة».

إن الأمر المهم في الذكر القلبي هو أن تعلم أن ما يصدقُ علىٰ حال الطفل الذي يبقىٰ سنتين ـ أو أقل أو أكثر حسب استعداده واعتدال مزاجه ـ يتعلم تدريجيّاً النطق والكلام من خلال الإصغاء لكلام الآخرين إلىٰ أن يصبح هو أيضاً قادراً علىٰ الكلام، هذا الأمر يصدق أيضاً علىٰ قلب السالك، فهو يصبحُ قادراً علىٰ النطق والكلام حتىٰ يُسمع ذكره بعد مدة من المواظبة علىٰ التوجه إلىٰ حضرة القدس الجبروتي والمداومة علىٰ ذكره جل جلاله. وهذا النطق القلبي يختلف أيضاً بين السالكين مثلما هو الحال مع النطق الظاهري تناسباً مع اختلاف مراتبهم.

[ثمار تكرار الأذكار]

كما أن الذكر نفسَهُ يختلف تناسباً مع تقلب القلوب لدىٰ الأشخاص، بل ويختلف في الشخص باختلاف الحالات والأوقات، فتُسمع منه ـ بما يتناسب مع هيمنة الذكر والتوجه القلبي ـ الألفاظ المناسبة مثل الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» و«يا الله» و«يا حي يا قيوم» ونظائرها.

وتظهر للذاكر أيضاً في هذه الأطوار القلبية أنواع التمثّلات بل وما هو أشرف من التمثّل، أي الكشوف التي لا مثال لها:

عندما يتحقق الصعود البرزخي تجد التمثلات الكاملة
المثال المجالس لك يزيدك نوراً ويزيل غمك

فإذا حلَّ سرُ السالك في التمثل وقع الدور والتسلسل في التمثلات
عندها ستجد ـ تدريجيّاً وببركة اللطف الأزلي ـ كشوفاً بلا مثال
فإذا تخليتَ عن كل ما في عرضك وطولك
عندها سيكون لك العروج بالعروج الأحمدي إلىٰ المعراج[1]

[حضور المعصومين (ع) عند المؤمن ساعة احتضاره]

ولما بلغ الكلام بنا إلىٰ موضوع التمثّل نقول: إن جميع التمثلات هي من إدراكات الإنسان، فالمثال يتمثل في عرصات ذات الإنسان. وقد بيّنا هذا الموضوع في عدة نكات من كتاب «ألف نكتةٍ ونكتة»، وذكرنا هناك الكثير من الإشارات الدقيقة التي تُعد من أسرار المعارف، ولذلك نكتفي هنا بذكر هذا المطلب العزيز الذي لم نذكره من قبل وهو:

صرحت عدةٌ من الأحاديث الشريفة أن النبي الأكرم والأئمة الأطهار والصديقة الطاهرة سيدة نساء العالمين يحضرون جميعاً ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ عند المؤمن ساعة احتضاره[2]. وهذا الحضور هو التمثّل نفسه يحصل للمؤمن إثر تحقق انقطاعه عن هذه النشأة، وهو صورٌ لثمار معارفه وعقائده الحقة ونتيجة لأعماله، فإذا تحقق له مثل هذا الانقطاع في غير وقت الاحتضار؛ حصلت له أنواعٌ من التمثلات نظير ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[3]، لأن الملاك هو التمثل نفسه كما هو المستفاد من استخدام

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

(٢) راجع كتاب الزهد للحسين بن سعيد الكوفي، ص: ٨٤ وما بعدها، وكذلك الفصول المهمة في أصول الأئمة، للحر العاملي، ج ١، ص: ٣١٧.

(٣) سورة مريم: ١٧.

القرآن الكريم لقاء التفريع لفعل التمثل، أي أن التمثل متفرع علىٰ الأفعال السابقة وهي في قوله: ﴿... إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا...﴾[1]، فقد قال سبحانه إثر ذلك: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾. فتبصرْ!

كما ينبغي التدبر بدقة وعمق في لام: ﴿لَهَا﴾، فهي ليست لام إضافة اعتبارية كما في قولك: هذا المتاع لزيد، بل هي لامُ نسبة حقيقية كما في قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. فافهم.

وقد صرحت عدة أحاديث شريفة بأن حضور أولئك الأعاظم ـ سلام الله عليهم ـ هو بالتمثّل، ولكن يمكن القول إن حضورهم بالتمثل يكون لأكثر الناس، أما للأوحدي منهم فهو حضور بما فوق التمثّل، فالأمر يرتبط بالدرجة التي تكونُ فيها روحك، فإذا كانت درجتها مثالية فهي تراهم عليهم السلام في مثالها، وإذا كانت درجتها عقلية، كان إدراكها لحضورهم عقلياً، فتدبر ترشدُ إن شاء الله تعالىٰ.

والأحاديث الشريفة التي تذكر حضور الرسول والأئمة عليهم السلام تذكر تارة أسماء الخمسة أصحاب الكساء، نظير الحديث المروي في البحار نقلاً عن المحاسن مسنداً عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول في جانب منه: «... ويُقال أمامك رسول الله وعليٌ وفاطمة عليهم السلام»؛ ويقول عليه السلام في الحديث الذي يليه: «أما فاطمة فلا تذكرها» (بحار الأنوار، ج٣، ط١، ص:١٤٢) وهذا الحديث الشريف يبين وجه عدم ذكر اسم السيدة فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ في نصوص الأحاديث الأخرىٰ، ولعل السر في ذلك هو ـ وإضافة إلىٰ لزوم

---

(١) سورة مريم: ١٦ ـ ١٧.

(٢) سورة البقرة: ١٠٧.

حفظ مقام المرأة وعصمتها ـ: تجنب أن يتفوه مقدس متقشف متحجر بكلام من قبيل: كيف يمكن لأي شخص أن يراها عليها السلام وهي ليست من محارمه؟ والله تعالىٰ أعلم بحقيقةِ الحال.

[الاستقامة على الذكر]

نرجعُ إلىٰ موضوع البحث الأصلي وهو الذكر والاستمرار عليه فنقول: من المناسب هنا أن نتبرك بطائفةٍ من غرر الأحاديث ودرر الكلمات الصادرة عن أهل بيت العصمة والوحي في فضيلة الذكر والحث علىٰ المواظبة عليه عسىٰ أن تتزود منها نفسٌ مستعدة فيكون لنا نصيب من بركةِ ذلك. ونقولُ ـ قبل نقل هذه الأحاديث الشريفة ـ: يجب أن تكون الهمة منصبة في حفظ الاستقامة والاستمرار في الذكر دون قناعةٍ بحالات التوجه المؤقت، فأصحاب هذه الحالات قد يصبحون من أهل القيل والقال؛ أما أصحاب الهمة العالية فهو شهود وجه السعادة وأهل العروج إلىٰ جنة القرب والمكاشفات الإنسانية، يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ (الجن: ١٦).

والماء الغدق هو الماء الغزير وقد فسره الإمام الصادق عليه السلام بالعلم الكثير، كما في الحديث المروي في مجمع البيان أنه قال: «معناه لأفدناهم علماً كثيراً يتعلمونه من الأئمة»[1]، وفي رواية الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال في تفسير الآية: «يعني لو

---

(١) مجمع البيان، ج ٥، ص: ٣٧٢، كنز الدقائق، ج ١٣، ص: ٤٨٢.

استقاموا علىٰ ولاية أمير المؤمنين علي والأوصياء من ولده عليهم السلام، وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم لأسقيناهم ماءً غدقاً؛ يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان»[1].

ووجه تفسير الماء هنا بالعلم هو أن الماء صورة وظاهر العلم، لأن العلم سببُ حياة الأرواح ماءً والماء سببُ حياة الأشباح. وقد فسّر ابن عباس الماء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[2] بالعلم[3]. والإيمان هو أيضاً علمٌ لأن الإيمان تصديق، والعلم هو تصورٌ أو تصديق، بل توجد علومٌ وإدراكاتٌ أعلىٰ مرتبة من التصور والتصديق وأعلىٰ مما تناله العقول، والإيمان يصدقُ أيضاً علىٰ جميع مراتب هذه العلوم والإدراكات وعلىٰ جميع مستوياتها.

ولا يكونُ لأي عملٍ أو ذكر أثراً مهماً ما لم يُلتزم بتكراره أربعين مرة، وقد صرحت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بخصوصية الأربعين في ظهور الفعلية وتجلي الاستعداد وخروج ما بالقوة إلىٰ مرحلة الفعل وحصول الملكة. كما رويت في الجوامع الحديثية أحاديث عن أهل بيت العصمة والوحي تحثُّ علىٰ الاستمرار علىٰ العمل لمدة سنةٍ كاملة من أجل إدراك ليلة القدر، كما سيتضح ذلك في الأحاديث الشريفة التالية:

[طائفة من الأحاديث الشريفة في فضيلة الذكر]

١ ـ روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص:٤١٩، ح ٣٩، وكذلك ص:٢٢٠، ح ١.

(٢) سورة المؤمنون: ١٨.

(٣) مجمع البيان، ج ٤، ص:١٠٢.

«ارتعوا في رياض الجنة. فقالوا: وما رياض الجنة؟ فقال: الذكر غدواً ورواحاً. فاذكروا، ومَن كان يحبُ أن يعلم منزلتَهُ عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تعالىٰ ينزل العبد حيثُ أنزلَ اللّهَ العبدُ من نفسه.

ألا إن خير أعمالكم وأذكاها عند مليكيكم وأرفعها عند ربكم في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله سبحانه وتعالىٰ. أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس مَن ذكرني».

وأي منزلةٍ أرفع من منزلة جليس الله تعالىٰ؟. (إرشاد القلوب للديلمي، الباب ١٣).

هلمَّ إلىٰ مجالسة الحبيب بذكره؛ وإلىٰ إعداد نفسك للقائِهِ
إذا صرتَ حافظاً لآداب الحضرة الإلهية
صرتَ مطلعاً علىٰ سر سرك وعارفاً به
احفظ ذلك لكي تكون جليساً له
تخاطبه في كل ما تقولُ قليلاً أو كثيراً
لا تفتح شفتيك بغير ذكره، وأعرضْ عن كل ما سوىٰ ذكره
تطهر بالكامل من كل الوساوس والأوهام
لكي تشاهد الحقيقة متجلية ساطعة
فإذا تطهرت من المناهي والملاهي
أشرقت فيك الأنوار الإلهية[1]

[الغفلة عن ذكر الله تميت القلب]

٢ - وروي في كتاب الدعاء من الكافي (ج٢، ص:٣٦١):

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات شعر بالفارسية.

«فيما ناجىٰ الله تعالىٰ به موسىٰ عليه السلام قال: يا موسىٰ لا تنسني علىٰ كل حال فإن نسياني يميتُ القلب».

٣ ـ وروي في الكافي أيضاً (ج٢، ص:٣٦٤): «قال الله عزّ وجلّ لعيسىٰ عليه السلام: يا عيسىٰ اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، واذكرني في ملئك أذكركَ في ملإٍ خير من ملإٍ الآدميين. يا عيسىٰ! ألِنْ لي قلبك وأكثر ذكري في الخلوات، واعلم أن سروري أن تبصبص إلي، وكن في ذلك حياً ولا تكن ميتاً».

٤ ـ وفي الكافي أيضاً بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:

«ما أخلص العبدُ الإيمان بالله عزّ وجلّ أربعين يوماً ـ أو قال: ما أجملَ عبدٌ ذكر الله عزّ وجلّ أربعين يوماً ـ إلا زهده الله في الدنيا، وبصره داءها ودواءها، فأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه...» (الكافي، ج٢، ص:١٤).

وروىٰ السيوطي في الجامع الصغير عن سيد الكائنات صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَن أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه»[١].

[حب الله لمداومة عبده على العمل]

٥ ـ وفي أصول الكافي، باب «استواء العمل والمداومة عليه»، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«إذا كان الرجلُ علىٰ عملٍ فليدمْ عليه سنة ثم يتحول عنه إن

---

(١) راجع الأصول الأصلية للفيض الكاشاني: ١٦٦ عن السيوطي.

شاء إلىٰ غيره، وذلك أن ليلة القدر يكونُ فيها في عامه ذلك ما شاء أن يكون» (الكافي، ج٢، ص:٦٧).

٦ ـ وعنه (الإمام الصادق) عليه السلام، قال:

«أحبُّ الأعمال إلىٰ الله عزّ وجلّ ما داوم عليه العبدُ وإن قلَّ».

٧ ـ وعنه عليه السلام أيضاً، قال:

«إياك أن تفرض علىٰ نفسك فريضة فتفارقها اثني عشر هلالاً».

٨ ـ وعنه عليه السلام أيضاً، قال:

«كان عليُ بن الحسين ـ صلوات الله عليهما ـ يقول: إني أحبُّ أن أُدوامُ علىٰ العمل وإن قَلَّ».

٩ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام قال:

«ما من شيءٍ أحبُّ إلىٰ الله عزّ وجلّ من عمل يُداوَمُ عليه وإن قَلَّ».

هذه خمسةُ أحاديث تحثّ وترغّب في المداومة علىٰ العمل، مصرحة بحبّ الله عزّ وجلّ للمداومة علىٰ العمل وإن كان قليلاً، وبعضها تأمرُ بالمداومة علىٰ العمل سنة بهدف إدراك ليلة القدر ثم الانتقال إلىٰ غيره إذا شئتم ذلك.

[التحذير من كثرة الكلام بغير ذكر الله]

١٠ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسو القلب. إن أبعد الناس من الله القلب القاسي» (الحديث الأول من أمالي الطوسي، الكافي، ج٢، ص:٩٤).

١١ ـ يقول الإمام السجاد عليه السلام في مناجاة الذاكرين:

«... وآنسني بالذكر الخفي... فلا تطمئن القلوب إلا بذكرك... أستغفرك من كل لذةٍ بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أُنسك، ومن كل سرور بغير قربك».

[كلام للشهيد الثاني في أصناف العلماء والذكر القلبي]

ونرىٰ من المناسب في هذا المقام أن ننقل كلاماً قيماً للغاية من كتاب «مُنية المريد» للعالم الجليل الشيخ زين الدين علي بن أحمد العاملي صاحب «شرح اللمعة» المشهور بالشهيد الثاني ـ أعلىٰ الله مقامه ـ والكلام هو في بيان مراتب العلماء والذكر القلبي؛ يقول:

«قال بعض المحققين: العلماءُ ثلاثة: عالم بالله غيرُ عالم بأمر الله، وهو عبدٌ استولت المعرفة الإلهية علىٰ قلبه فصار مستغرقاً بمشاهدة نور الجلال والكبرياء، فلا يتفرغ ليعلم علم الأحكام إلا ما لا بد منه.

وعالم بأمرِ الله غير عالم بالله، وهو الذي عرف الحلال والحرام ودقائق الأحكام، (لكنه) لا يعرف أسرار جلال الله.

وعالمٌ بالله وبأمر الله، فهو جالسٌ علىٰ الحد المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات، فهو تارة مع الله بالحب له، وتارة مع الخلق بالشفقةِ والرحمة. فإذا رجع من ربه إلىٰ الخلق صار معهم كواحدٍ منهم كأنه لا يعرف الله، وإذا خلا بربّه مشتغلاً بذكره وخدمته فكأنه لا يعرف الخلق، فهذا سبيل المرسلين والصديقين.

وهو المراد بقوله صلى الله عليه وآله: «سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء».

فالمراد بقوله «سائل العلماء»، العلماء بأمر الله غير العالمين بالله، فأمر بمساءلتهم عند الحاجة للاستفتاء. وأمّا الحكماء فهم الذين لا يعلمون أوامر الله، فأمر بمخالطتهم، وأمّا الكبراء فهم العالمون بهما، فأمر بمجالستهم لأن في مجالستهم خير الدنيا والآخرة.

ولكل واحد من الثلاثة ثلاثُ علامات:

فللعالم بأمر الله الذكر باللسان دون القلب، والخوف من الخلق دون الرب، والاستحياء من الناس في الظاهر، ولا يستحيي من الله في السر.

والعالم بالله ذاكرٌ خائف مستحٍ، أما الذكر فذاكرُ القلب لا اللسان، والخوف خوف الرجاء لا خوف المعصية، والحياءُ حياءُ ما يخطر علىٰ القلب لا حياء الظاهر.

والعالِم بالله وبأمره له تسعةُ الأشياء: الثلاثة المذكورة للعالم بالله فقط، والثلاثة المذكورة للعالم بأمر الله فقط، مع ثلاثة أخرىٰ:

كونه جالساً علىٰ الحد المشترك بين عالم الغيب والشهادة، وكونه معلماً للمسلمين، وكونه بحيث يحتاج الفريقان الأولان إليه وهو مستغنٍ عنهما.

فمثل العالم بالله وبأمر الله كمثل الشمس لا تزيد ولا تنقص.

ومثل العالم بالله كمثل القمر يكمل تارة وينقص أخرىٰ.

ومثلُ العالم بأمر الله كمثل السراج يحرق نفسه ويضيءُ لغيره» انتهىٰ[1].

(١) كتاب منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، ص:٣٨ ـ ٣٩، طبعة مجمع الذخائر الإسلامية في قم المقدسة، إعداد السيد أحمد الحسيني.

[كلامٌ للقيصري في حقيقة الذكر ومراتبه]

وللقيصري كلامٌ سامٍ وحسن للغاية في تعريف حقيقة الذكر ومراتبه، وهو كلامٌ يصلح لصاحب القلب المقبل علىٰ الله المتعمق في التوحيد، وقد أورده في شرحه للفص اليونسي من «فصوص الحكم» (شرح فصوص الحكم، ص: ٣٨٣، ط١)، يقول:

«حقيقة الذكر عبارة عن تجلّيه لذاته بذاته من حيث الاسم المتكلم إظهاراً للصفات الكمالية، ووصفاً بالنعوت الجلالية والجمالية في مقامي جمعه وتفصيله كما شهد لذاته بذاته في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، وهذه الحقيقةُ لها مراتب:

أعلاها وأولاها: ما في مقام الجمع من ذكر الحق نفسه باسم المتكلم بالحمد والثناء علىٰ نفسه.

وثانيها: ذكر الملائكة المقرّبين وهو تحميد الأرواح وتسبيحها لربّها.

وثالثها: ذكرُ الملائكة السماوية والنفوس الناطقة المجردة.

ورابعها: ذكر الملائكة الأرضية والنفوس المنطبعة مع طبقاتها.

وخامسها: ذكر الأبدان وما فيها من الأعضاء؛ وكلٌّ ذاكرٌ لربه بلسانٍ يختصُ به، فإن ذكر الله سارٍ في جميع العبد».

وهذا الذكر الساري في جميع العبد سارٍ في جميع الموجودات، لأن بقاء الموجودات بالهوية الإلهية السارية في كل شيءٍ، بل ليست الموجودات سوىٰ الشؤون النورية والآيات

---

(١) سورة آل عمران: ١٨.

الأسمائية لهذه الهوية إذْ أنه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[1]. ولذلك فحيثما كانت هذه الهوية كان عين الحياة والعلم والشعور وباقي الأسماء الإلهية الجمالية والجلالية، أجل يُطلقُ علىٰ كل موجودٍ أحد هذه الأسماء بسبب ظهور حاكمية هذا الاسم عليه وخضوع باقي الأسماء والصفات لحاكميته هذه ـ حسب ما نتصوره ونعتبره نحن بالطبع ـ.

من هنا يتضح أن هذه الهوية السارية هي عين الذكر وهي نفسها الذاكر والمذكور: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤).

هو نورٌ واحد في العلىٰ وفي الدُنىٰ
فطعام الجميع هو من هذا النور الداني
يجلس علىٰ مائدته اللب والقشر، فالكل يأكل منها
العدو والصديق يجلسان علىٰ مائدته الكريمة هذه
فالجميع يرتزقون من رزق رحمته، الشيطانُ منهم والإنسان
يأخذون جميعاً طعامهم منها بإذن ربهم
ورزقُ كلّ منهم هو نور الوجود
فالكلُّ سجود شكراً لرازقهم
والكل جمالٌ وحب وشوق
ووجدٌ ومجدٌ ونور
والكل حياةٌ وعلمٌ وحب ونطق وذكر وذوق[2]

(١) سورة الحديد: ٣.
(٢) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

[تحذير من عواقب نسيان الله]

إذن عليك أن تكون ذاكراً بكل وجودك بعد أن عرفت جريان الذكر في جميع وجود العبد، وكن ذاكراً بذكرك، فأنت بنفسك ذكرٌ وذاكر ومذكور، فقد انطوت في ذاتك مقامات الذكر الخمسة، وهي أنت نفسك: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الحشر: ١٩).

ألم تعلم أنه وحيثما نزل سلطان الوجود نزلت معه جميع عساكر أسمائِهِ وصفاته فهي مرافقة لركبه؛ فأين تجد مكاناً يخلو من نور الوجود؟ وأي بقعة لا تقع في دائرة حكم هذا السلطان؟

إن نور الوجود الإلهي الحقّي غير متناهٍ، وبعبارة أخرىٰ فإن الوحدة الشخصية الحقة هي حقيقة هذا الوجود؛ وبعبارة ثالثة فإن «بسيط الحقيقة كل الأشياء»، فهو «الصمد» حسبما وصف نفسه بنفسه، وعلىٰ هذا؛ فأي ذرة تنفصل عنه بالبينونة العزلية أي بينونة وانفصال شيءٍ عن شيءٍ؟ إنه سبحانه منزهٌ عن مثل هذه البينونة والعزلة حتىٰ الوصفية منها الناشئة من نقص الأشياء.

ومن الضروري هنا الانتباه إلىٰ قضية مهمة ترتبط بالذكر ويكمن سرها في لزوم وجود الذاكر مع البدن الطبيعي في النشأة العنصرية وسلسلة الزمان، بحيث تكون باقي الأجزاء عالة عليه. وقد بيَّنَ هذه القضية الشيخ العارف محيي الدين بن العربي في الفص اليونسي من فصوص الحكم والعلّامة القيصري في شرحه حيث قالا:

«ولا بد أن يكون في الإنسانِ جزءٌ يُذكرُ به ويكون الحق تعالىٰ جليس ذلك الجزء، فيحفظ باقي الأجزاء بالعناية كما يحفظ العالم

بوجود الكامل الذي يعبدُ اللَّهَ في جميع أحواله، لذلك لا تخرب الدنيا ولا يستأصل ما فيها ما دام الكامل فيها أو مَن يقول: الله الله، كما جاء في الحديث الصحيح: «لا تقوم الساعة وعلىٰ وجه الأرض مَن يقول: الله الله»، فكذلك وجود العالم الإنساني لا يخرب ولا يفنىٰ ويكون محفوظاً بالعناية الإلهية ما دامَ جزءٌ منه ذاكراً للحق» (شرح فصوص الحكم، ص: ٣٨٥، ط١).

وقد اشتملت رسالتي ـ وأنا أقل العباد ـ المسماة «نهج الولاية» علىٰ المزيد من التوضيح والبراهين الأخرىٰ علىٰ هذه القضية أي لزوم وجود الإنسان الكامل مع البدن العنصري في النشأةِ الطبيعية، فينبغي الرجوع إليها، وينبغي للإنسان أن يضع نصبَ عينيه العبارات التالية من كلام النبي والوصي ـ عليهما وآلهما الصلاة والسلام ـ لكي يزداد بصيرة بشأن مراتب الذكر الخمس وسريانها في جميع مراتبه الوجودية. فقد روي عن النبي الأكرم ﷺ أنه كان يقول في ليلة النصف من شعبان في سجوده:

«سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي»[1].

وهذه العبارة شاملة لجميع المراتب الخمس، وقد ذكرها الوصي عليه السلام بالتفصيل في دعائِهِ:

«اللهم نوّر ظاهري بطاعتك، وباطني بمحبتك، وقلبي بمعرفتك، وروحي بمشاهدتك، وسري باستقلال اتصال حضرتك يا ذا الجلال والإكرام»[2].

---

(١) إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس: ٧٠٢ ضمن أعمال ليلة النصف من شعبان.

(٢) رسالة السير والسلوك المنسوبة للسيد بحر العلوم: ١٢٨ الهامش ضمن تعليقات السيد الطهراني عليها (الطبعة الفارسية الأولىٰ ١٤٠٢هـ.ق).

● تبصرة

نقل المولىٰ صدر المتألهين في موضعين من كتاب «الأسفار الأربعة» حديث: «لا تقوم الساعة وعلىٰ وجه الأرض مَن يقول: الله الله»، وعرض توضيحاً له، فقد نقله في آخر الفصل الأول من الفن الخامس وهو في الجواهر والأعراض (الأسفار، ج١، ص:١٦٠، ط١)، كما نقله في آخر الفصل الثالث من الباب (١١) من كتاب النفس (الأسفار، ج٤، ص:١٥٧، ط١)، وحقيقة الأمر هي أن التفسير الذي عرضه لهذا الحديث مستفاد من المقطع المذكور من الفص اليونسي. والتوضيح القيم الذي عرضه لهذا الحديث خاصة تفسيره لمعنىٰ «وجه الأرض» دقيق وعميق جداً وجدير بأن يرجع إليه الخبير بهذه الحقائق.

● تبصرة [في آثار المداومة على الذكر]

يقول الله سبحانه في سورة «المعارج» من كتابه الكريم: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]. ويقول سبحانه في سورة النساء (الآية: ١٠٣): ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، ويقول في سورة آل عمران (الآية: ١٩١): ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، ويقول في سورة طه (الآية: ١٤): ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾، وقد جعل الله الصلاة هنا وسيلة للذكر، وقد علمتَ أن الغاية أشرفُ من الوسيلة، وبملاحظة هذه الحقيقة يجدر التدبر في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، لكي يتضح أن المداومة علىٰ الذكر تعني المداومة علىٰ الصلاة، وأن

---

(١) سورة المعارج: ١٩ ـ ٢٣.

دائم الذكر هو دائم الصلاة أيضاً. وليس هذا قولي أنا بل هو قول باقر علوم الأولين والآخرين - صلوات الله عليه - المروي عنه في أول الجزء الثاني من المجلد التاسع عشر من كتاب البحار نقلاً عن تفسير العياشي، وفيه عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«لا يزال المؤمنُ في صلاة ما كان في ذكر الله إنْ كان قائماً أو جالساً أو مضطجعاً، لأن الله يقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾[1] الآية». وروىٰ مثله في رواية أخرىٰ عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام (ص:٣، ط١)، إذن فالإمام الباقر عليه السلام يصرح بأنك في صلاة دائمة ما دمت في ذكر الله، فطوبىٰ للذين هم في صلاة مستمرة:

إن كنت من أهل الصلاة والتضرع
فاخرج من أسر الدعاوى المجازية
اعرض عن حديث الأغيار وعن كل ما سوىٰ ذكر الحبيب
لقد زيّنك الاسم الإلهي
فأي تاج تطلبه أفضل من تاج : ﴿كَرَّمۡنَا﴾[2]؟!
إن حياتك - يا عزيزي - إلهية
هذا ما يشهد عليه العقل والنقل وهما شاهدان عادلان
لقد تسلطت الطبيعة علىٰ حياتك فلا يوجد ظالم لنفسك سواك
فاجتهد في تهذيب نفسك للحصول علىٰ حياتك الإلهية[3]

---

(١) سورة آل عمران: ١٩١.
(٢) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ في سورة الإسراء: ٧٠ ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.
(٣) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

● **تبصرة [في فضيلة ذكر: لا إله إلّا الله]**

كثيرةٌ هي الألفاظ المشتملة علىٰ حقيقة الذكر، لكن أهلَ الذكر اختاروا كلمة «لا إله إلّا الله»، لعدة أسباب منها: أن حروفها من حروف أشرف الأسماء وهو لفظ «الله»، فلا توجد فيها حروفٌ أخرىٰ لا توجد فيه. أما السبب الثاني فهي أنها ذكر خفي ولذلك اهتموا بها كثيراً، لأن هذه الخصوصية تتحقق فيها بصورة أقوىٰ، إذْ لا توجد في هذه الكلمة حروفٌ شفوية تحتاج إلىٰ تحريك الشفتين عند التلفظ بها، ولذلك يمكن تلاوتها وسط الناس دون أن يشعر أحدٌ منهم[1]، وهذه الخصوصية غير موجودة في الأذكار الأخرىٰ مثل: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر».

والسبب الثالث هو اشتمال هذه الكلمة ـ أكثر من باقي الأذكار ـ علىٰ حرف الألف وهو أشرف حروف الهجاء وبه قوام جميع الحروف ولذلك سموه «هيولى الحروف» و«قطب الحروف».

والسبب الرابع هو أن المداومة عليها تثمر الدخول في حصن الله والنجاة من عذابه، فقد جاء في الحديث القدسي: «لا إله إلّا الله حصني فمَنْ دخل حصني أَمِنَ من عذابي»[2].

وقد ذكروا أسباباً أخرىٰ لاختيار هذه الكلمة، وأطرفها ما ذكره المؤيد بن الجندي في شرح الفص الشيثي من فصوص الحكم ضمن

---

(١) ولذلك يكون الالتزام بهذا الذكر المبارك أقرب للإخلاص وأبعد عن الرياء، ومعلوم أن الرياء هو آفة الأعمال ويؤدي إلىٰ ضياع بركاتها وآثارها في حين أن الإخلاص لله تعالىٰ في العمل بها هو مفتاح قبوله عز وجل لها، وبالتالي تحقيق آثارها وحصول العبد علىٰ بركاتها. [المترجم].

(٢) سيأتي الحديث الشريف نقلاً عن توحيد الصدوق في الملحق السادس من ملاحق هذه الرسالة.

بيان مراتب التوحيد حيث قال: «إن العامة من أهل الله يرون التوحيد وهو ستةٌ وثلاثون مقاماً كلياً نطق بها القرآن في مواضع عدة فيها ذكر لا إله إلّا الله، في كل موضع منها نعتُ مقام من مقامات التوحيد» (شرح الجندي لفصوص الحكم، ص: ٢٦٠، وكتاب مصباح الأنس، ص: ١٩٥).

وتزداد حلاوة وعذوبة ذكر لا إله إلّا الله علىٰ لسان الذاكر بملاحظة التوحيد القرآني الذي استوفت بيانه رسالة «الوحدة الإلهية في رؤية العارف والحكيم»؛ وكذلك بملاحظة كون اسم الجلالةِ إمامَ أئمة الأسماء الإلهية، وكذلك بملاحظة اشتقاق الألوهية ومعنىٰ اسم الجلالة «الله» من الفعل «أَلَهَ» أو الفعل «وَلَهَ» أو من الهاء علىٰ نحو الكناية، أو غير ذلك. وينبغي الرجوع لمعرفة بعض الأمور المذكورة إلىٰ كتاب «مصباح الأنس»، (ص: ١٢٠)، وكذلك النكتة (٦٣٣) من كتاب «ألف نكتة ونكتة» وهي في فضيلة ذكر «لا إله إلّا الله»[١].

[الفكر والذكر جناحا التقرب من الله]

واعلم أن الفكر والذكر هما جناحا طير روحك الملكوتي وبهما تحلق وتعرج إلىٰ ذروة سعادتك.

واعلم أن الشيء الوحيد الذي تقدمه لك تخيلاتك وأوهامك هو صدك عن هذا التحليق والعروج؛ أي عن السير إلىٰ ديار الملكوت. فاترك هذه الأوهام للحيوانات وكن إنساناً ذا عقل وعاقل ومعقول.

يُحكىٰ أن أحد المتاجرين بالزهد اختار للتلاوة هذه الآية

(١) راجع الملحق السادس من ملاحق هذه الرسالة.

الكريمة: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ (هود: ٤٨)، وسر اختياره لهذه الآية هو كثرة ما تشتمل عليه من تكرار حروف شفوية تحتاج تلاوتها إلىٰ تحريك الشفتين مثل الباء والميم والواو؛ فكان هذا المرائي يتلوها مؤكداً بالخصوص علىٰ ذيلها: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾!!

الفصل الرابع:

في بيان حكم الأعداد المذكورة لبعض الأدعية والأذكار

[الالتزام بالأذكار والأدعية طبقاً للكيفية المأمور بها]

أمَرَ المعصومون عليهم السلام بتلاوة بعض الأدعية والأذكار مكررة بعددٍ معين أو في عدد معين من الأيام، فلا ينبغي التساهل في الالتزام بذلك رغم أن هذه الأعمال من المستحبات، بل ينبغي الاهتمام بحفظ الكيفية التي أمروا بالعمل بهذه المستحبات طبقها سواءٌ في شكلها أو عددها؛ أي ينبغي الالتزام بالعمل بها طبق ما أمروا به دون أي شكلٍ من أشكال التجاوز والتغيير في الكيفية المأمور بها، والعمل بذلك هو نوعٌ من التهذيب والتأديب للنفس وتعويدها علىٰ الالتزام الدقيق بالأوامر.

يُضاف إلىٰ ذلك ما ورد عنهم عليهم السلام من الحث علىٰ هذا الالتزام. يقول العالم الجليل محمود بن محمد دهدار المسمىٰ بالعياني، صاحب كتاب «مفاتيح المغاليق»، في أول رسالته الموسومة بـ «خلاصة جواهر الأسرار»: «قال الإمام الناطق بالحق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: اعلموا أن أسماء الله بمنزلة الكنوز المدفونة،

والعدد بمنزلةِ مقدار المسافة التي ينبغي قياسها بالضبط للوصول إلىٰ تلك الكنوز، فإذا لم تلتزموا به فلن تصلوا إليها زدتم في العدد أو نقصتم»[1].

ويقول الفاضل التستري وهو فتح الله بن محمد رضا الحسيني المرعشي في أوائل كتابه القيم «وفق المراد في علم الأوفاق والأعداد»: «قال أكابر المحققين: إن العدد (في الأذكار) بمنزلة حوض الماء المُعد للغسل الارتماسي، فإذا زاد عمقه عن المقدار المطلوب غرق المرتمس فيه وإذا قلَّ عمقه لم يتيسر الارتماس فيه.

كما قالوا: إن دور العدد هو دور أسنان المفتاح، فإذا زاد عددها أو قلَّ لم يفتح المفتاح قفل الباب. كما قيل: الأعداد أرواح والحروف أشباح، والعدد كأسنان المفتاح إذا نقصت أو زادت لا يفتح الباب. والزيادة علىٰ العدد المطلوب إسراف، والنقص منه إخلال.

وكان أحد المشائخ يروي أن في سورة «يس» المباركة اسماً يُزال ببركته العمىٰ الموروث، فقيل له: هل ينتفع بهذا الاسم مَن يقرأ هذه السورة كاملة؟ فأجاب: إذا وصف طبيب دواءً معيناً لمرضٍ معينٍ، وكان هذا الدواء موجوداً في دكان العطار، فهل ينفع المصاب بهذا المرض أن يذهب إلىٰ دكان العطار ويتناول كل ما فيه من أدوية؟ إن الحال هنا هو نفسه هناك». انتهىٰ ما نقله التستري في كتابه. ونحن نتبرك هنا بنقل حديثين شريفين بهذا الشأن ونكتفي بهما:

---

(١) لا يخفىٰ أن المنقول هنا هو ترجمة عربية للترجمة الفارسية لقول الإمام الصادق عليه السلام إذ لم نجد النص العربي الأصلي لقوله عليه السلام في المصادر التي بين أيدينا.

الحديث الأول: روىٰ ثقة الإسلام الكليني في كتاب الدعاء من أصول الكافي (الحديث ١٧ من باب «القول عند الإصباح والإمساء»، ج٢، ص: ٣٨٣) بسنده عن العلاء بن كامل قال:

«سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[1] عند المساء: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميتُ ويميتُ ويحيي وهو علىٰ كل شيء قدير.

قال (العلاء): قلت: بيده الخير. قال عليه السلام: إن بيده الخير، ولكن قُلْ كما أقول لك عشر مرات، وأعوذُ بالله السميع العليم؛ حين تطلع الشمس وحين تغرب عشر مرات».

وتُلاحظون أن العلاء أراد إضافة «بيده الخير» أو استفهم عن إمكان إضافتها فنهاه الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك وأمره بالالتزام بما علّمهُ.

الحديث الثاني: وهو في دعاء الغريق الوارد في حديثٍ رواه الشيخ الأجل الصدوق في إكمال الدين[2] مسنداً عن عبد الله بن سنان قال:

«قال أبو عبد الله عليه السلام: ستصيبكم شبهةٌ فتبقون بلا عَلَمٍ يُرىٰ ولا إمام هدًى، لا ينجو منها إلا مَن دعا بدعاء الغريق.

قلتُ: وكيف دعاءُ الغريق؟ قال: تقول: يا الله يا رحمنُ يا رحيمُ يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك.

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٥.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة، ٢: ٣٥٢، ح ٤٩، الباب ٣٣.

فقلت: يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي علىٰ دينك.

فقال: إن الله عزّ وجلّ مقلب القلوب والأبصار ولكن قُلْ كما أقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك» (البحار، ط١، الجزء ٢، المجلد ١٩، ص:٢٧٦).

وتلاحظون في هذا الحديث أن عبد الله بن سنان أراد إضافة «والأبصار» فلم يأذن له الإمام بذلك. فتبصرْ!

الفصل الخامس:

آثار أوقات الدعاء وأمكنته

[خصوصية الليل في نقل الذاكر إلى عوالم الغيب]

إن للأوقات عظيم الأثر في تأثير الدعاء وفي أحوال الداعي. وطوبىٰ لك وحسن مآب إذا صرتَ «ابن الوقت» أو ترقيتَ إلىٰ ما هو أسمىٰ من ذلك وصرت «أبا الوقت»[1].

ولليل عموماً شأنٌ عظيم في تحقيق آثار الأدعية والأذكار والخلوة والتفكر. فالليل هو غيبٌ، لذلك فهو يجرُّ الإنسان إلىٰ الغيب والباطن ويوصله إليه. نقل بعضُ مشائخي عن أستاذه أنه قال: يقولُ الله سبحانه: الليل لي! فهو عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ (المزمل: ٦ ـ ٧).

إن من الصعب تخلية البال في النهار بسبب الانشغال بكسب المعاش أو تحصيل المعاد ومزاولة كل شخص لحرفة أو صنعة أو شغل ما، فلا يتيسر فراغ البال إلا للأوحدي من الناس والذي هو

---

(١) الذي تؤثر فيه الأوقات المباركة للذكر والدعاء فيندفع إليهما عند حلول هذه الأوقات هو ابن الوقت والمرتبة الأعلىٰ هي مرتبة الذي يكون انقطاعه إلىٰ الله عز وجل وارتباطه بدرجةٍ من القوة بحيث يوّلد، بنفسه لنفسه ولغيره الأوقات المناسبة للذكر والدعاء. [المترجم].

مظهر للاسم الإلهي الشريف «مَن لا يشغله شأنٌ عن شأن»؛ فيكون جامعاً لجميع الحضرات فلا تشغله حضرة عن أخرىٰ؛ فهو الواصل إلىٰ «منصة الظهور» كما تصرح بذلك نتيجة البحث التحقيقي الذي اشتمل عليه الفص الإسحاقي من فصوص الحكم.

[الانقطاع عن المشاغل أثناء الذكر]

أما الليل فهو موعد اعتزال الخلق والانقطاع عن مشاغل النهار، يجر الإنسان إلىٰ الخلوة والوحدة وهما توصلانه ـ بدورهما ـ إلىٰ «التوحّد»، وما لم يصل الإنسان إلىٰ «التوحّد» فلن يفوزَ بالإدراكات العقلية والسير الأنفسي، لأن «التعلق» لا يجتمع مع «التعقل»، وكل ما ندركه نحن فهو من حيث أحديتنا الوجودية وليس مقروناً بتفرغ البال. و«سير النفس» هو ـ حسب تعبير العلّامة الفناري في كتاب «مصباح الأنس» (ص: ٢٩٥، ط١): عبارة عن تلبس النفس بالأحوال المتعاقبة، وهذه الأحوال واردات نورية تعود علىٰ النفس المستعدة الصافية، ولليل دخلٌ تامٌ ودورٌ كاملٌ في صفاء النفس وعروجها، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ (الإسراء: ١)، فالحكم هنا متعلق بعنوان «العبد». وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩). ومن الجدير الرجوعُ بهذا الخصوص إلىٰ النكتة (٤٨٣) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»[١].

[حث النصوص الشرعية على الذكر والتفكر في الأسحار]

وتوجدُ الكثير من الآيات والأحاديث التي تحث علىٰ التهجد في الليل والاستغفار في الأسحار؛ والسعيدُ هو مَن ابتلي بمسألة: «مَن

---

(١) راجع الملحق السابع من ملاحق الرسالة.

أنا؟» فطفق يبحث عن علاجٍ لحاله ودواء لدائِهِ، واجتهد في السعي في طلب مناهج العمل والأستاذ المربي وفي استرضاء مولاه، ومثل هذا شديد الأنس بالليل وخلوته لأن قلبه حي يطلب لقاء الحبيب:

تحدثت كثيراً عن القلب وسمعتَ الكثير
لكنك لم ترَّ ليلَ صاحب القلب المجنون!
فهذا طلسم عجيب لا يمكن تعريفه إلا بعد أن تؤدب النفس الجامحة
القلب المجنون للمتحرر يتلظىٰ بنار العشق
فإذا حلّ الليل تمنىٰ أن لا يأتي الصباح
لأن طير القلب كسير الجناح عارٍ فهو يسكن في الليل
إنه طير الحق سبحانه ينفتح لسانه في الليل
عندما يشاهد جمال الحسن المطلق
فأين القلب الذي يكون بلبلَ روضة الحبيب
فيكونُ ليله أطيب من صباح أيام الربيع
حلَّ الليل فطاب للقلب لمس سورة «الليل» في المَحق وفي الطمس
حلَّ الليلِ وفيه تشع الأنوار الإلهية علىٰ القلب المطهر من الفساد
حلَّ الليلُ فما أطيب الصوم والصمت والتفكر
وما أطيب وأحلىٰ الخلوة للذكر في الأسحار[1]

[اغتنام مواسم الذكر والدعاء وأوقاته المباركة]

ولا شك أن من أتم المناسبات أثراً هي المناسبات الزمانية[2]،

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

(٢) الأوقات الخاصة التي نبهت النصوص الشريفة إلىٰ كونها مواسم مباركة للدعاء، مثل ساعة ما بين الطلوعين، والأسحار، وليلة الجمعة، وشهر رمضان المبارك، ويوم عرفة والأيام العشرة الأولىٰ من شهر ذي الحجة، وأوقات هطول المطر، وليلة النصف من شعبان، وليلة =

فإن لأصل حضور شهر الله المبارك شهر رمضان أثراً تكوينياً علىٰ النفوس المستعدة، مثلما أن لحلول شهر رجب الأصب ومنازلَهُ شهوداً خاصاً لما كانوا من أهله، كما صرّح بذلك صاحب الفتوحات المكية في وصف الرجبيين، وقد أقبل هذا الشهود الرجبي الخاص عدة مرات علىٰ بعض الفقراء إلىٰ الله والحمد لله رب العالمين.

يقول السيد ابن طاووس في كتاب الإقبال: «إنّ لأوقات القبولِ أسراراً لله جلَّ جلاله ما تعرف إلا بالمنقول» (آخر الباب (٦) من أعمال ذي الحجة، ص:٥٢٧، ط٢). وبعض هذه الأسرار تعرف أيضاً بالمعقول فتدرك بإحساسٍ خفي غريب.

وروىٰ الديلمي في الباب (٢١) من كتابه «إرشاد القلوب»، عن علي بن الحسين عليه السلام قال:

«إن بين الليل والنهار روضة يرتعُ في نَوْرِها، الأبرار، ويتنعم في حدائقها المتقون...» والمراد من الروضة هنا هي ساعة ما بين الطلوعين. والنور ـ بفتح النون ـ بمعنىٰ «الزهر أو الأبيض منه»[1].

ويوجد في كتاب الدعاء من الكافي باباً خاصاً في «الأوقات والحالات التي تُرجىٰ فيها الإجابة»، روىٰ في الحديث السادس منه مسنداً عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خيرُ وقت دعوتم الله عزّ وجلّ فيه الأسحار؛ وتلا هذه الآية في قول يعقوب عليه السلام ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾[2]، قال: أخّرَهم إلىٰ السحر».

= أول جمعة من شهر رجب، وعموم شهري رجب وشعبان وغيرها مما هو مذكور في كتب الدعاء والمراقبات. [المترجم].

(١) المنجد، ص:٨٤٥، الطبعة ٢٦.

(٢) سورة يوسف: ٩٨.

[المكان وتحقق آثار الذكر والدعاء]

واعلمْ أن للأمكنة أيضاً تأثيراً خاصاً كما هو الحال مع الأوقات. ولكن إذا وصلت إلىٰ مقام ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1]، فطوبىٰ لك بركات «ليس عند ربك صباحٌ ولا مساء»[2]. والأحاديث الواردة في هذا الباب كثيرة أيضاً.

بل إن أرباب العزائم وأصحاب الأعمال الغريبة من «الأوفاق» وغيرها، يختارون للأذكار والأدعية الخاصة بالصفات الجمالية مكاناً خاصاً، فيما يختارون للأذكار والأدعية الجلالية مكاناً آخر، وقد نصّ علىٰ ذلك العياني في كتاب «مفاتيح المغاليق» فيما يرتبط بكلٍّ من الأعمال الجمالية والجلالية. وهذا الكلام حق وتفصيل الحديث بشأنه ينفع الخواص، لكن نقل الشواهد في كل من موارده المذكورة يؤدي إلىٰ الإطالة، إضافة إلىٰ كون الكثير من هذه الأمور مما لا يطيقه أغلب الناس.

وقد رويت في المجاميع الحديثية أحاديث شريفة تأمرنا بأداء الفرائض في مكانٍ معين من المنزل، أي تأمرنا باتخاذ مصلى خاص في المنزل للفرائض يوضع الإنسان في هذا المكان عند احتضاره ليكون ذلك سبباً لتخفيف شدائد الموت وغمراته عليه. أما النوافل فقد أمرت الأحاديث الشريفة بإقامتها في أماكن متعددة لكي تكون شاهدة للإنسان[3].

---

(١) سورة القمر: ٥٥.

(٢) من الكلمات الدائرة علىٰ ألسن الأولياء.

(٣) لا يخفىٰ أن لبعض الأماكن تأثيراً خاصاً في تحقق آثار الدعاء وقد صرحت الأحاديث الشريفة بذلك بالنسبة لبعضها مثل المساجد التي ذكرت أن للذي يعمرها دعوة مستجابة، ومثل مرقد سيد الشهداء عليه السلام الذي جعل الله جلت حكمته الدعاء مستجاباً تحت قبته مثلما =

● تبصرة [أهمية السكينة القلبية عند الذكر]

قلنا: إن ما يدركه الإنسان إنما يدركه من حيث التوحّد والأحدية الوجودية لذاته؛ وهذا القول يستند إلىٰ كون أن للمعاني - وهي العلوم والحقائق - صورة جمعية وحدانية، والتفرق والاختلاف فيما يظهر في عالم الطبيعة. كما أن توفر السنخية شرط بين الطعام والمستطعم. فافهم.

ولا يحصل هذا التوحّد والأحدية الوجودية بغير طمأنينة البال، ولذلك فإن الصور الجمعية لا تحصل مع اضطراب الخاطر وتشتت البال. كما أن الذكر والدعاء لا يصفوان ولا يخلصان مع وجود حديث النفس والهواجس النفسية، ولذلك لا يعطيان في هذه الحالة الأثر المطلوب. ألا تتدبر في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾[(١)]؟! تدبر أيضاً في إضافة الجنة إلىٰ «الرب» إلىٰ النفس المطمئنة نفسها ﴿رَبِّكِ﴾، وتعمق فيها لكي تعرف مَن هو «ربك» أنت؟ ومَن هو رب كل مَن يقول: «ربي» أو «يا رب»؟ هذا «الرب» إنما هو الجدول الوجودي لكل كلمة نورية موجودية - من الذرة إلىٰ البيضة -، وهو الجدول المتفرع من بحر الوجود المطلق والصمدي غير المتناهِ للحق تبارك وتعالىٰ:

جدولٌ أنت من بحر الوجود الجميل

لكنك تجهل بالجدول وبالبحر[(٢)]!

= جعل الشفاء في تربته. ومثل المواقف الكريمة كعرفات، وعموم المشاهد الشريفة والمراقد المقدسة للأنبياء والأئمة عليهم السلام والأولياء، وتجارب أهل الإيمان في هذا الباب كثيرة جداً. [المترجم].

(١) سورة الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

إن أرباب الكلمات الجزئية هم الذين يصلون في طريق استكمالهم إلىٰ ربهم الكامل المكمل لهم إذ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[1]. فهؤلاء الأرباب هم جداول متفرعة من نهر «النيل» وهو الرب: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ (الكهف: ١٠٩).

وهذه هي الحقيقة الدقيقة السامية التي أفادها العارف صدر الدين القونوي في تفسير سورة الفاتحة، ونقلها عنه العلّامة ابن الغفاري في مصباح الأنس وهي:

«إن الربَّ اسم كلي سارٍ بجميع معانيه في جميع الأسماء الكلية والجزئية وظاهرٌ في كل اسم بحسبه، فكل موجود حقيقتُهُ منتشأة من حقيقة إلهية أصلية أو فرعية إلىٰ ما لا يتناهىٰ، وكان الوجود المضاف إليه الظاهر في المراتب الكونية روحاً ومثالاً وحساً متعيناً من حضرة اسم متعين بتلك الحقيقة الإلهية، فكان ذلك الاسم ربَّهُ المتوليّ لتربيته».

ثم قال بعد بيان حكمي الربوبية العام والخاص: «وأما نبينا محمد ﷺ فله المنهل الأعلىٰ وهو التجلي الأول الذي نوره أولاً وربه ثانياً، وهو أصل جميع الأسماء والتعينات العلمية والوجودية ومنتهاها كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الآية، فإن ربه هو التجلي الأول الذي هو مسمىٰ «هو» وباطن الاسم «الله»». (مصباح الأنس، ص: ١٥١).

---

(١) سورة النجم: ٤٢.

وتوجد في حقيقة «الجنة» وأنواعها وإضافتها في هذه الآية الكريمة إلىٰ ياء المتكلم ﴿جَنَّتِي﴾ عدة مطالب دقيقة ذكرناها في النكتتين (٧٠٧) و(٩٢١) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»، فلتراجع هناك[1].

وللخواجه نصير الطوسي بيانٌ جميل لحقيقةِ النفس المضطربة والنفس المطمئنة أورده في شرح الفصل الثامن من النمط التاسع من كتاب «الإشارات»؛ يقول فيه:

«رياضة البهائم، منعها عن إقدامها علىٰ حركات لا يرتضيها الرائض وإجبارها علىٰ ما يرتضيه لتتمرن علىٰ طاعته.

والقوة الحيوانية التي هي مبدأ الإدركات والأفاعيل الحيوانية في الإنسان، إذا لم يكن لها طاعة القوة العاقلة ملكة كانت بمنزلةِ بهيمةٍ غير مرتاضة تدعوها شهوتها تارة وغضبها تارة اللذان تثيرهما المتخيلة والمتوهمة بسبب ما تتذكرانه تارة وبسبب ما يتأدى إليهما من الحواس الظاهرة تارة إلىٰ ملائمها، فتتحرك حركات مختلفة حيوانية بحسب تلك الدواعي وتستخدم القوة العاقلة في تحصيل مراداتها فتكون هي «أمارّة» تصدرُ عنها أفعالٌ مختلفة المبادىء، والعقلية مؤتمرة عن كرهٍ مضطربة.

أما إذا راضتها القوةُ العاقلة بمنعها عن التخيلات والتوهمات والإحساسات والأفاعيل المثيرة للشهوةِ والغضب، وإجبارها علىٰ ما يقتضيه التعقل العملي إلىٰ أن تصير متمرنة علىٰ طاعتِهِ متأدبة في خدمتِهِ تأتمرُ بأمرها وتنتهي بنهيها كانت العقليةُ مطمئنة ولا يصدرُ

---

(١) راجع الملحق الثامن من الملاحق المضافة إلىٰ هذه الرسالة.

عنها أفعالٌ مختلفة بحسب المبادىء، وباقي القوىٰ بأسرها مؤتمرة متسالمة لها. . . »[1].

فإذا صارت النفس مطمئنة خوطبت بخطاب: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

وينبغي هنا التدبر بعمق في إضافة كاف المخاطب إلىٰ الرب في قوله ﴿رَبِّكِ﴾ وفي إضافة ياء المتكلم في كلمتي ﴿عِبَٰدِى﴾ و﴿جَنَّتِى﴾.

إن صيرورة النفس مطمئنة تعني مخاطبتها بهذا الخطاب. تُراجع في هذا الموضوع النكتة رقم (٧٠٧) والنكتة رقم (٩٢١) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»[2].

---

(١) شرح الإشارات، ج ٣، ص: ٣٨٠.

(٢) راجع الملحق الثامن من ملاحق هذه الرسالة.

الفصل السادس:

أهمية طهارة الداعي

[التطهر مما يصد عن التوجه القلبي للذكر]

تعتبرُ طهارة الإنسان شرط مهمٌ للغاية في حصوله علىٰ ثمار الأذكار والأدعية والأوراد ونظائرها من الأعمال، فلا ثمرة للقلقةِ اللسان المجردة بل حذار من أن تؤدي إلىٰ قسوةِ القلب والبُعد عن ساحة القرب الإلهي، لأن الذكر المجرد عن التفكر يعني أن القلب غافل عن الذكر، والقلب الغافل هو مصباح بلا نور، ومَن لم يكن له نورٌ فهو بعيدٌ عن إدراك الحقائق، والذاكر بغير حضور قلبه وتوجهه هو كالأعمىٰ الذي يحملُ بيده مشعلاً.

ومن المفيد هنا التدبر بدقة في البيان البليغ الذي أورده العالم المحقق الخواجه نصير الدين الطوسي في شرح الفصل الثامن من النمط التاسع من كتاب «الإشارات» للشيخ الرئيس ابن سينا، ومعلومٌ أن النمط التاسع هو في مقامات العارفين. يقول المحقق الطوسي: «إن العبادة تجعل البدن بكليته متابعاً للنفس، فإذا كانت النفس مع ذلك متوجهة إلىٰ جناب الحق بالفكر صار الإنسان بكليته مقبلاً علىٰ الحق وإلا لصارت العبادة سبباً للشقاوة كما قال عز

وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾[1].

هلمَّ إلىٰ المداومة علىٰ البقاء في محضره
لكي تشاهد تجليات نوره
فهذا الحضور يجعل الفؤاد مستهاماً
وهو الحضور الذي يوصل إلىٰ مقام اللا مقام[2]!

[التطهر من الذنوب ومراتبه]

وقد فصلتُ ـ وأنا أقل العباد ـ الحديث عن موضوع الطهارة ومراتبها في رسالة «الوحدة في رؤية العارف والحكيم» (ص: ٤١ ـ ٤٦، ط١)، فلتُراجع[3]. أما هنا فنقول علىٰ نحو الإجمال:

اعلم أن للذنب عدة مراتب، أدناها أمثال السرقة والكذب، ويصل الإنسان إلىٰ مقام يرىٰ فيه أن عبادتَهُ هي ذنبٌ وتعبيرٌ عن البُعد فإن «وجودك ذنبٌ لا يُقاسُ به ذنب»[4].

---

(١) سورة الماعون: ٤ ـ ٥.

(٢) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

(٣) يراجع الملحق التاسع من الملاحق التي وضعناها في آخر الرسالة.

(٤) لعل أحد معاني هذا القول هو أن أصل النظر إلىٰ أي وجود علىٰ نحو الاستقلال هو ذنبٌ يؤدي إلىٰ البعد عن الله سبحانه وتعالىٰ، فالنظر إلىٰ النفس ـ بأي من مراتبه بدءاً من العجب بها إلىٰ نسبة ما يعمله من صالحات الأعمال إليها ـ هو من مصاديق الذنب المبعد عن القرب الإلهي، ولذلك فإن الإمام الصادق عليه السلام (كما سيأتي في الفصل العاشر نقلاً عن مجمع البيان للطبرسي)، يصف الشراب الطهور الذي يسقيه الله جل كرمه للأبرار بقوله: «أي يطهرهم عن كل شيءٍ سوىٰ الله»، فكل ما سوىٰ الله ـ من هذه الزاوية أي من زاوية النظر إليه مستقلاً عن بارئهِ وخالقه جل جلاله ـ هو ذنب يبعد الإنسان عن القرب الإلهي.
وهذا القول يُستشهد به كثيراً في كتب العرفاء وهو عجز بيت من أبيات ثلاثة يُنقل أنها جرت علىٰ لسان جارية في زمان الجنيد، وقد صعق الجنيد إثر سماع هذه الأبيات ووقع مغشياً عليه، ثم جاءه صاحب الجارية وسأله عن علة ما جرىٰ له فأخبره بأن الأمر يرتبط بالأبيات التي سمعها من الجارية فوهبه الرجل هذه الجارية فقبل الجنيد هذه الهبة ثم أعتق الجارية.
وكلمات الجنيد في العرفان وأصول الطريقة مشهورة تتناقلها كتب أهل هذا الفن كما قال =

والذنب هو الدَنَس، والطهارة هي الاغتسال من الأدناس والرجس، بدءاً من الدَنَس الظاهري إلىٰ الدنس الذي «لا يُقاسُ به ذنب»، وحسب تعبير صادق آل محمد ـ صلوات الله عليهم ـ فإن «الشراب الطهور» المذكور في سورة «هل أتىٰ» هو الذي يطهر الإنسان من كل ذنب. يُراجع تفصيل ذلك في الرسالة المذكورة.

[ضرورة المراقبة لحفظ الطهارة]

واعلمْ أن بذرة السعادة هي المراقبة، والمراقبة هي ضبط النفس وحماية حرم القلب: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الحشر: ١٩)، والهدف من جميع العبادات والأدعية والأذكار هو تقديم العون لنمو هذه البذرة المثمرة للفلاح. فاشدد حيازم الهمة العالية وضَعْ نصبَ عينيك [illegible] الوصية القيمة والقيمة للغاية الصادرة عن كشاف الحقائق الإمام [illegible]طق بالحق أبي عبد الله جعفر الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ المروية عنه في آخر كتاب جامع الأخبار المنسوب للشيخ الصدوق أنه عليه السلام قال:

«القلب حرمُ الله فلا تُسكن في حرم الله غير الله»[1].

هلّمَ إلىٰ سماع حديث عالم القلب

= صاحب كتاب ريحانة الأدب في ترجمة الجنيد (ج ١، ص:٤٣٣) ونقل القضية المتقدمة.

أما الأبيات المشار إليها فهي:

إذا قلتُ أهدىٰ الهجرُ لي حُلَلَ البلىٰ ... تقولينَ لولا الهجرُ لم يطِبِ الحبُّ

وإنْ قلتُ هذا القلب أحرقه الهوىٰ ... تقولي بنيران الهوىٰ شُرِّفَ القلبُ

وإن قلتُ: ما أذنبتُ؟ قالت مجيبة ... وجودك ذنب لا يُقاس به ذنبُ

نقلاً عن رسالة السير والسلوك المنسوبة للسيد بحر العلوم هامش الصفحة ٩٦، من تعليقات آية الله السيد محمد حسين الطهراني. [المترجم].

(١) وفي بحار الأنوار (ج ٥٥، ص:٣٩ من الطبعة الجديدة، الباب ٤ من كتاب السماء والعالم): «قلب المؤمن عرش الله».

من صاحب القلب الحي الذي جعل قلبه منزلاً للحق حقاً
إنه الإمام الصادق وهو بحر الحقائق
وقد قالَ في وصف القلب:
إن القلب حرمُ الله وحده، فلا تفسح المجال لغيره للسكنىٰ فيه
هذه الوصية هي بذرة الفلاح، وعليك أن تزرعها في أرض القلب
ثم اجتهد في حراستها لكي تصير أرضك سماوية[1]

[بركات مراقبة الحضور الإلهي]

وللشيخ صائن الدين علي بن تركة كلامٌ تام للغاية في بيان حقيقة المراقبة أورده في الفصل (٥٨) من كتابه «تمهيد القواعد»، فهو يقول: «إن دوام المراقبة ـ التي هي عبارة عن ملاحظة الحقيقة المطلقة في تنوعات تعيّناتها بحيث لا يغيب عن الواحد الظاهر بكثرة المظاهر ـ مما يستجلب تلك الكمالات ويُستحصل به سائر العلوم والمعارف» انتهىٰ.

وهذا المعنىٰ الدقيق لدوام المراقبة جديرٌ بصفوة صفاءِ خلاصةِ خاصة الخاصة، جعلنا الله وإياكم منهم بمنه وكرمه.

جاء في آخر مادة «غفل» من كتاب «سفينة البحار»: وعن لب اللباب: وفي الخبر:

«إن أهل الجنة لا يتحسرون علىٰ شيءٍ فاتهم من الدنيا كتحسرهم علىٰ ساعةٍ مرت من غير ذكر الله».

[التطهر بنور المعرفة من دنس الشك]

إن أهم فروع التزكية وتهذيب النفس تطهير الإنسان لسره وذاتِهِ

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

من الشك والريب في الإيمان بالله، والذي يُطهّر الإنسان من هذا الشك ومن الأوهام والوساوس هو نور المعرفة، وبذلك يتحلىٰ الإنسان بحلية التوحيد الحقيقي الخالص وهو التوحيد القرآني، فطوبىٰ لك إذا شمّرت ساعد الهمة العالية لكي تصبح إنساناً قرآنياً يصدق عليك حكم ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾[1].

فاعلم الآن أنك تمسُّ كل ما تسمعه وتقوله وتأكلُهُ، وكذلك الحال مع جميع أنواع إدراكاتك وأحوالك ونواياك وشؤونك وأطوارك، فهي جميعاً ماسةٌ لك، فكن إنساناً قرآنياً: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾، لا تجالس الأجنبي قريباً كان أو بعيداً، فمرادي من وصف «الأجنبي» هو مطلق الرجال والنساء الذين ليسوا من محارم ولاية الله وولاية أولياء الله. وينفع في هذا المقام الرجوع إلىٰ القصيدة (١٨) من ديوان «دفتر القلب»، وهي:

اسمعْ مني هذه الكلمة واحفظها
اجعلْها نصب عينيك وحذار من نسيانها:
احذرْ بكل حزم ويقظة من كلام الأغيار
سواءٌ كان في المسجد ذاك أو في الدير
فالأغيار هم جميعاً أجانب؛ يا أخي
لا فرق أن يكونوا رجالاً أو نساءً
فالمحروم من نور الولاية هو من غير المحارم

---

(١) سورة الواقعة: ٧٩. والخيرُ كل الخيرُ هو في أن يصبح الإنسان قرآناً ناطقاً أو قرآناً تكوينياً مقابل القرآن الكتبي، وللقرآن التكويني مراتب يتسنم ذراها المعصومون الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ـ صلوات الله عليهم ـ ولغيرهم نصيب من مراتب القرآن التكويني تتناسب مع درجات تحليهم بأخلاق القرآن وتحققهم بحقائقه المعرفية عقائد وسلوكيات. [المترجم].

هذا هو حكم الدراية
مجالسة الأجنبي تجعل روحك مظلمة
وتُسلطُ علىٰ قلبك القسوة
لا فرق في حصول هذه الآثار
بين أن يكون الأجنبي هذا غريباً أو من أهلك وعيالك
فمجالسة غير المحارم سبب لنزول الحرمان بك
فهم بلاءٌ وبيلٌ مدمرٌ لجسمك وروحك
والنظرة إليهم تؤدي بي إلىٰ السقوط فوراً
لأنهم مطرودون من ساحة الحبيب
إنهم يعيشون في ليلٍ مظلم حتىٰ وهم وسط النهار النير
لأنهم بعيدون عن محضر الحبيب
فهم حقاً «ناس نسناس»
والأنس بهم يجلب عليك الإفلاس[١]

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات شعر بالفارسية.

الفصل السابع:

اجتناب اللحن في الدعاء

[الحث الشرعي على التلاوة الصحيحة للذكر والدعاء]

هدفنا في هذا الفصل التأكيد علىٰ لزوم اجتناب اللحن في الدعاء والاهتمام بإعراب الأدعية والأذكار. إذْ يجب قراءة نصوص الأدعية والأذكار بصورة صحيحة لأن الدعاء الملحون لا يصعد إلىٰ الله عز وجل، واختلاف إعراب الكلمات يؤدي إلىٰ تغيير معانيها الأصلية، كما أن الدعاء الملحون يؤدي بصورةٍ طبيعية إلىٰ نفرة السامع. روي في الكافي (ج ١، ص:٢٢) عن جميل بن دراج عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أعربوا حديثنا فإنّا قومٌ فصحاء»، وروي عنه عليه السلام أيضاً أنه قال: «نحن قومٌ فصحاء، إذا رويتم عنا فأعربوها»، (عدة الداعي، ص:١٠، ط١)، وروي عن الإمام أبي جعفر الجواد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال:

«ما استوىٰ رجلان في حسبٍ ودينٍ قط إلا كان أفضلهما عند الله عزّ وجلّ آدَبَهما. قال [الراوي]: قلت: جُعلت فداك قد علمِتُ فضله عند الناس في النادي والمجالس، فما فضله عند الله عز وجل؟

قال عليه السلام: بقراءةِ القرآن كما أُنزل، ودعائِهِ الله عزّ وجلّ من حيث لا يلحن، وذلك أن الدعاء الملحون لا يصعد إلىٰ الله عز وجل»[1] (إرشاد القلوب للديلمي، الباب ٤٩، وعدة الداعي، ص: ١٠).

ويقولُ ابن فهد في عدة الداعي: «إن الأحكام تتغير بتغير الإعراب في الكلام، ألا ترىٰ إلىٰ قوله صلى الله عليه وآله حين سُئل: إنّا نذبح الناقة والبقرة والشاة وفي بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ قال صلى الله عليه وآله: «كلوه إن شئتم، فإن ذكاة الجنين ذكاة أمه».

فبعض الناس يروي ذكاة الثاني (كذا ـ الذكاة الثانية ظ) بالرفع فيكون معناه أن ذكاة أمه تبيحه وهي كافية عن تذكيتِهِ. وبعض رواها بالنصب فيكون معناه أن ذكاة الجنين مثل ذكاة أمه، فلا بد فيه من تذكية له بانفراده ولا تبيحه ذكاةُ أمه. فافهم ذلك فإنه من مغاص الفهم ورقيق العلم»[2].

وهذا كلام صحيحٌ بالكامل، فإن المعاني والأحكام تتغير بتغير الإعراب، والشواهد الدالة علىٰ ذلك كثيرةٌ، ولذلك نلاحظ شدة اهتمام علمائنا السابقين بضبط القراءات القرآنية والإجازات الروائية،

---

(١) الاهتمام بتلاوة الأدعية والأذكار يعين الداعي والذاكر بلا شك علىٰ التفهم الصحيح لما يخاطب ربَّهُ به ويتوجه به إليه ويخلصه بالتالي من أن يكون ذكره ودعاءه لقلقة لسان عن غير وعي وتوجه، ولعل هذه هي الثمرة الأساسية لحثّ أئمة الهدىٰ عليهم السلام علىٰ اجتناب اللحن في الدعاء، وهذا الأمر هو من مصاديق صفة اتقان العمل التي يَترحم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله علىٰ المتحلي بها، ولكن ينبغي الانتباه إلىٰ لزوم عدم السماح للاهتمام بتجويد التلاوة وقراءة الأدعية بالأذكار والأدعية بأن يستحوذ علىٰ قلب وتوجه الداعي والذاكر فيغفله عن التوجه القلبي عمن يخاطبه ويتوجه إليه بهذه الأدعية والأذكار، فإن هذا التوجه القلبي هو العامل الأهم من كل ما سواه في تحقيق الآثار المطلوبة من الدعاء والذكر. [المترجم].

(٢) راجع أيضاً المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء للفيض الكاشاني ٢: ٣١٠.

وهذا ما تشهد عليه كتب القراءات القرآنية وكتب دراية الحديث وأنواع الإجزاءات الروائية. والكتب الخاصة بهذه الأمور والتي تنقل القراءات القرآنية والحديثية والأدبية؛ كثيرة إلىٰ درجة يؤدي الخوضُ فيها إلىٰ الخروج عن موضوع هذه الرسالة.

ولم ينحصر اهتمام المسلمين بالقراءات وضبطها، بل شمل أيضاً كتابة الكلمات أيضاً، وهدفهم هو حفظ الصورة المكتوبة لكتاب الوحي الإلهي علىٰ وفق صورتها المسموعة، ومن الكتب المهمة في هذا المجال كتاب «نثر المرجان في رسمِ نظم القرآن» تأليف العالم النبيل محمد غوث.

● تبصرة [عدم اللحن ليس من شروط الدعاء]

حديث الإمام الجواد عليه السلام محمولٌ علىٰ الترغيب والحث علىٰ تعلم العلوم الأدبية، وهدفه مدح هذه العلوم وبيان فضيلتها، وأن الدعاء المعرب بصورةٍ صحيحة هو أكمل وأعلىٰ مرتبةً من الدعاء الملحون، دون أن يعني ذلك أن الإعراب ومعرفة علم النحو من شروط وآداب الدعاء، فالمراد من قبول الدعاء المشار إليه بصعود الدعاء إلىٰ الله عز وجل؛ هو غير استجابة الدعاء الناتجة من التوجه والانكسار القلبي والتضرع.

إن صحةَ اللفظ شيء؛ ومرتبة المعنىٰ شيءٌ آخر، فإذا جُمع بينهما فنورٌ علىٰ نور، ولذلك فإن منطق الوحي وسفراء الحق وهداة الخلق قائمة علىٰ دعوة الناس قاطبة ـ نساءً ورجالاً، وعواماً وخواصاً ـ إلىٰ الدعاء والذكر والارتباط بالرب سبحانه وتعالىٰ، وهذه الدعوة مقترنة بوعدٍ وبشرىٰ لهم بأن دعاءهم الملحون سيصحح ويُقبل لأن «إنما الأعمال بالنيات» و«نيةُ المرء خيرٌ من عملِهِ» كما

ورد في حديثين مرويين عن رسول الله ﷺ[1]؛ وإلىٰ جانب ذلك دعوا عليهم السلام الناس إلىٰ تعلم العلوم الأدبية.

فمثلاً لو أن رجلاً عامياً أوصىٰ باللغة العامية الرائجة وقال مثلاً: لا تجعلوا فلاناً غيرَ محروم من شيءٍ من ثلثِ أموالي، وكنا علىٰ يقين أنه يقصد: لا تحرموا فلاناً، فيجب علىٰ الوصي في هذه الحالة أن يعطي هذا الشخص شيئاً من ثلث مال المتوفىٰ وبالمقدار المتعارف. وقد قال رسول الله ﷺ: «سينُ بلال عند الله شين»[2]، وقال: «إن الرجل الأعجمي من أمتي ليقرأ القرآن بعجمتِهِ فتعرفه الملائكةُ علىٰ عربيتِهِ» (عدة الداعي، ص:١٣، ط١).

وفي الكافي بإسناده إلىٰ حفص عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام قال: «يا حفص مَن مات من شيعتنا ولم يُحْسِن القرآن عُلّم في قبره، ليرفع الله به من درجته...» (ج ٢، ص:٤٤٣).

ونقل ابن فهد ـ رضوان الله تعالىٰ عليه ـ في عدة الداعي، قال: «جاء رجلٌ إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إن بلالاً كان يناظر اليوم فلاناً، فجعل يلحن في كلامه، وفلانٌ يُعرب ويضحك من بلال. فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

يا عبد الله إنما يُرادُ إعراب الكلام وتقويمه لتقويم الأعمال وتهذيبها. ما ينفع فلاناً إعرابُهُ وتقويمه لكلامه إذا كانت أفعاله ملحونة تُنج لحنٌ؟!

---

(١) المحجة البيضاء ٢: ٣١٠، والحديثان مرويان في صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن النسائي ومسند أحمد وغيرها، راجع رسالة السير والسلوك المنسوبة للسيد بحر العلوم، ص:٥٥ ـ ٥٦ ضمن تعليقات آية الله الطهراني.

(٢) المحجة البيضاء ٢: ٣١٠.

وماذا يضرُ بلالاً لحنُهُ في كلامه إذا كانت أفعاله مقومة أحسن تقويم ومهذبة أحسن تهذيب؟»[1].

أجل؛ إن التشدق بالألفاظ وتحسين العبارات، شيءٌ آخر غير توجه القلب والتضرع إلىٰ الله ومجالسته وهو الجمال المطلق، وربما كان أرباب المقالات المنشغلون بقيل وقال المجادلات والعارفون بالمصطلحات، أصحاب قلوب ميتةٍ وأرواح مكتئبة، كما تشير لذلك هذه الأبيات المسجلة في «دفتر القلب»:

تتوهم أنك ستركب الرفرف والبراق
بتنميق العبارات والكر والفر والإيماء والإشارات!
كلا، إنما أصابتك أورام فتوهمت أنك سمين[2]!!

أن يصيرَ الإنسانُ نحوياً بارعاً لا يعني أنه صار إنساناً مهذباً وسالكاً إلىٰ الله عز وجل؛ أجل، إذا جمع المرءُ بين هذا وذاك فهو أفضل، لكن المهم هو أن يكون جوهر الداعي نفسه خالياً من اللحن والخطأ. هل سمعت بحكاية النحوي والربان التي أوردها منظومة العارف الرومي في المجلد الأول من ديوانه «المثنوي»؟ إنه يقول:

جلس النحوي العابد لنفسه في السفينة وقال لربّانها:
هل تعلمتَ من علم النحو شيئاً؟ أجاب الربان: لا
فقال النحوي المغرور: لقد ضاعَ نصف عمرك!
انكسر قلب الربان، لأنه لم يكن لديه ما يرد به علىٰ النحوي
ثم عصفت الرياح بالسفينة

---

(١) المحجة البيضاء ٢: ٣١٠.
(٢) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

فالتفت الربان إلىٰ النحوي المغرور وقال:
هل تعرف من السباحة شيئاً؟
أجاب النحوي: لا فلست من السابحين!
فقال الربّان: إذن، ضاع كل عمرك، فالسفينة ستغرق[1]

ولكن، ينبغي إلىٰ جانب ذلك السعي لقراءة القرآن والأدعية المأثورة منها وغيرها بصورة صحيحة، فقد روي في الكافي (ج ٢، ص: ٤٥٠) عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «اعرب القرآن فإنه عربي»، ولكن إلىٰ جانب ذلك يقول تعالىٰ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل: ٢١)، فتدبر ترشد إن شاء الله تعالىٰ.

● **تبصرة**

الصحيحُ في حديث ذكاة الجنين هو أن الذكاة الثانية مرفوعة وأن ذكاة الجنين تتحقق مع ذكاة أمه، أجل، إذا أُخرج من بطنها حياً وجبت تذكيته بالنحر أو الذبح. وتفريعات هذا البحث تجدها في الكتب الفقهية والدخول فيها يخرجنا عن موضوع هذه الرسالة، وقد جمع العلّامة المجلسي الأحاديث المروية بشأنها في كتاب «السماء والعالم» من بحار الأنوار (مج ١٤، ص:٨١٨، ط١)، كما نقل أقوال طائفة من العلماء بهذا الشأن، وقال بعد نقل الروايات الشريفة:

«واعلم أن المقطوع به كلام الأصحاب أن تذكية الأم تكفي لتذكية الجنين وحلّه، إذا تمّت خلقته وأشعرَ وأوبَر.

والحكم في الأخبار مختلف، ففي بعضها منوط بتمام الخلقة،

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

وفي بعضها بالشعر والوبر، وفي بعضها بالشعر، وفي بعضها بتمام الخلقة والشعر. وكان بينها تلازم فيحصل الجمع بين الجميع كما قال في (س): ومن تمام الخلقة الشعر والوبر، والمشهور بين المتأخرين أنه لا فرق بين أن تلجه الروح وعدمه لإطلاق النصوص».

ثم نقل من كتب العامة الحديث نفسه الذي نقلناه آنفاً عن كتاب عدة الداعي لابن فهد وقال: «وقد روىٰ العامة عن النبي ﷺ: إنّا نذبح الناقة... الحديث».

الفصل الثامن:

الأدعية المأثورة والأدعية غير المأثورة

[جواز إنشاء الدعاء وشروطه]

البحثُ في هذا الفصل بشأن الدعاء المأثور والدعاء غير المأثور، والنتيجة المستفادة منه مهمة للغاية بالنسبة لأهل البصائر.

والمأثور هو المروي عن النبي أو الإمام. وتجوز تلاوة الدعاء غير المأثور سواءٌ للذي أنشأَهُ أو لغيره، فلم يحرمه ولم ينهَ عنه أحد، كما نلاحظ ذلك بوضوح في الأدعية المنشأة في ديباجة المصنفات والمؤلفات ومجالس الوعظ والخطابة وصلاة الجمعة والعيدين ونظائرها؛ فكل يحمدُ الله ويثني عليه بلسانِهِ، وقد جرت سيرة العلماء علىٰ ذلك وأجازوه.

ولتوضيح هذا المطلب يلزم هنا أن ننقل النكتة (٨٨٤) من كتاب «ألف نكتة ونكتة» فقد ذكرنا فيها ـ بصورة مجملة ـ ما ينبغي أن نقوله هنا وهو:

ينبغي لأهل البصيرة التدبر بدقة كاملة في ذيل هذا الحديث الشريف المروي في كتاب الطب لأبي عتاب عبد الله بن بسطام وأخيه الحسين بن بسطام النيسابوريين، وفيه: «وحدثنا أبو عتاب عبد

الله بن بسطام قال: حدثنا محمد بن خلف قال: حدثنا الوشاء قال: حدثنا عبد الله بن سنان عن أخيه محمد بن سنان قال: قال جعفر بن محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ:

ما من أحدٍ تخوّفَ البلاء فتقدم فيه بالدعاء إلا صرف الله عنه ذلك البلاء. أما علمتَ أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا علي! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: إن الدعاء يردّ البلاء وقد أُبرم إبراماً.

قال الوشاء: فقلت لعبد الله بن سنان: هل في ذلك دعاءٌ مؤقت؟ قال: أما إني فقد سألتُ عن ذلك الصادق عليه السلام فقال:

نعم، أما دعاءُ الشيعةِ المستضعفين ففي كل علة من العلل دعاءٌ مؤقت، وأما دعاءُ المستبصرين فليس في شيءٍ من ذلك دعاءٌ مؤقت لأنَّ المستبصرين البالغين دعاؤهم لا يحجب» (المصدر، ص:٣٣، ط١).

وهذه القضية هي قرةُ عين المستبصر، وعلىٰ أساسها قال السيد ابن طاووس بشأن دعاء هلال شهر شوال (كتاب الإقبال، ص:٣٠٥): «فصل؛ فيما نذكره من كيفية الدخول في شهر شوال وما أنشأناه عند رؤية هلاله ـ إلىٰ قوله ـ وأما ما يُقال عند رؤية هلال شوّال فقد قدمنا في كتاب عمل الشهر دعاءً أنشأناه يصلح لجميع الشهور، فإن لم يجده فليقل عند رؤية الهلال المذكور: اللهم إنك قد مننتَ علينا بضياء البصائر والأبصَار...» إلىٰ آخر الدعاء، وهو من إنشاء السيد وقد صدرت الكثير من نظائره عن العلماء المستبصرين. وكان المرحوم الأستاذ العلّامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان يقول: «إن السيد ابن طاووس وابن فهد صاحب «عدة

الداعي» والسيد بحر العلوم من الكاملين». يُضاف إلىٰ ذلك أن في ذيل الحديث المذكور سرٌ مستسر لأهل الأسرار. وتوجد في القرآن الكريم الكثير من الإشارات لذلك، منها ما في آيات سورة الصافات، فليُتدبرُ فيها.

[دعاء المخلصين والمستبصرين]

ما تقدم كان مقطعاً من النكتة (٨٨٤) المذكورة رأينا أن من الضروري أن ننقله هنا. ويُلاحظ في الحديث المتقدم أن الإمام عليه السلام يصرح بأن الدعاء المؤقت المعين هو لمستضعفي الشيعة، أما المستبصرين منهم فليس لهم دعاءٌ مؤقت لأنهم يعرفون كيف يدعون وماذا يطلبون وماذا يقولون في دعائهم. والمراد من وصفهم بالبلوغ في هذا الحديث هو البلوغ العقلي والرشد الفكري عملياً: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (القصص: ١٤).

وقد نقل القرآن الكريم الكثير من غرر أدعية صفوة الله سبحانه من خلقه وحكمهم وكلماتهم التي أنشأوها بأنفسهم ولم يتلقوها من غيرهم. أجل، فإن الإنسان المستبصر الذي بلغ رشده يصير بنفسه «لسان الله»، ويمكنّه بلوغه لكماله من معرفة ماذا يطلب وكيف يدعو ربَهُ وكيف يحفظ مقتضيات التأدب في محضر الله وكيف يصفه سبحانه وتعالىٰ.

ومرادنا من آيات سورة الصافات التي دعونا إلىٰ التدبر فيها قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ (الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠). ولصاحب كتاب «تحفة الملوك في السير والسلوك» كلامٌ نافذٌ للقلوب بهذا الشأن يقول فيه: «.. والمعنىٰ هو أن هؤلاء يستطيعون الثناء علىٰ الله سبحانه بما هو أهله، وقادرون

علىٰ معرفة صفات كبريائِهِ جل جلاله. وهذه أعلىٰ مراتب المخلوق ونهاية مقامات ممكن الوجود.

ولا يمكن للعبد تناول هذا الشراب ما لم تتفجر ينابيع الحكمة بأمر الله دونما بخل من أرض القلب، كما لا يمكن بلوغ هذه المرتبة ما لم يطوّ منازل مراتب عالم الممكنات ويفتح عين بصيرته علىٰ مملكةِ الوجوب واللاهوت.

أجل، إن من غير الممكن الوصول إلىٰ مجلس ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بغير مغادرة بقعة مملكة الإمكان، كما ولا يمكن ارتداء لباس الحياة الأبدية بغير ذلك، وواقع الحال هو ثبوت فوز عباد الله المُخلَصين بهبةِ الحياة الأبدية، فهم حاضرون عند ربهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1]، ورزقهم هو رزق معلوم، فقد قال الله سبحانه بشأن المُخلَصين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾[2]»[3].

● تبصرة [في أحاديث مَن بلغ]

مما يناسب البحث بشأن الأدعية غير المروية عن المعصومين عليهم السلام أن نتناول ـ باختصار ـ الكلام بشأن حديث «مَن بلغ»، فنقول: صرحت الأحاديث الشريفة المروية من طرق الفريقين أن الثواب الذي يُروىٰ أنه أجر لقراءة دعاءٍ معين يُعطىٰ لقارئِهِ حتىٰ لو لم تكن رواية ذلك صادرة عن المعصوم حقاً. واستناداً إلىٰ هذه

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٩.

(٢) سورة الصافات: ٤١.

(٣) رسالة السير والسلوك المنسوبة للسيد بحر العلوم والموسومة بتحفة الملوك، ص: ٤٥ ـ ٤٦ من الطبعة الملحقة بمقدمة وشرح من آية الله السيد محمد حسين الطهراني. انتشارات حكمت.

القاعدة يمكن للمطلع علىٰ ضعف سند دعاءٍ معين أن يتلوه بقصد القربة المطلقة لا بقصد الورود بالخصوص. وقد عقد المرحوم المجلسي باباً في كتاب بحار الأنوار (المجلد الأول، ص:١٤٩، ط١) تحت عنوان «باب مَن بلغه ثوابٌ من الله علىٰ عملٍ فأتىٰ به» ونقل فيه طائفة من الأحاديث الشريفة بهذا الخصوص عن كتب: ثواب الأعمال للشيخ الصدوق، والمحاسن للبرقي، والكافي للكليني، منها هذا الحديث الذي نقله عن كتاب المحاسن، وسنده هو: أبي، عن علي بن الحكم، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«مَن بلغه عن النبي صلى الله عليه وآله شيءٌ من الثواب فعمله، كان أجر ذلك له وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقله».

ثم قال المرحوم المجلسي بعد نقل هذا الحديث الشريف: «هذا الخبر من المشهورات رواه الخاصة والعامة بأسانيد، ورواه ثقة الإسلام في الكافي...» إلىٰ آخر ما ذكره.

وقد بحثت كتب أصول الفقه أيضاً بشأن هذا الموضوع وتناولت الإشكالات المثارة بشأنه وعرضت الإجابات عنها. لكن الدخول في كل بحثٍ من هذه المباحث يخرجنا عن موضوع هذه الرسالة. وقد بحثت هذا الموضوع أيضاً النكتة (٦٤٦) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»[١].

---

(١) راجع الملحق العاشر من الملاحق التي أضفناها لهذه الرسالة.

الفصل التاسع:

اختلاف أحوال الداعين وكيفية إفاضة ما يُلقىٰ إليهم

[آثار الذكر تناسب خصوصيات الذاكرين]

يشتملُ هذا الفصل علىٰ أمرين يحظيان بأهمية كبرىٰ عند أهل الذكر والدعاء والوحدة والخلوة والسلوك والرياضات والمجاهدات الذين فازوا بكمال الانقطاع إلىٰ الله، ولذلك لا ينبغي التساهل في الاهتمام بهما بل يجب اعتبارهما من كنوز الأسرار.

الأمر الأول هو: أن أرباب السير والسلوك ذكروا في كتبهم ورسائلهم ـ مثل رسالة «تحفة الملوك» للسيد بحر العلوم وغيرها ـ سنوح حالات خاصة لهم أثناء السير والسلوك إلىٰ الله، فمثلاً يقول صاحب «تحفة الملوك»: «ومن هذه الآثار، صدور أصوات من القلب، تبدأُ ـ في المراحل الأوليّة ـ بأصوات تشبه تغريد الطير والقمرية، ثم يُسمع من القلب صوتٌ يشبه الصوت الناتج من تردد أصداء إلقاءِ قطعة معدنية في إناء معدني. . .» إلىٰ آخر ما ذكره بهذا الشأن[1].

---

(١) رسالة السير والسلوك المنسوبة للسيد بحر العلوم، ص:١٩٧، مع مقدمة وشرح آية الله السيد محمد حسين الطهراني.

ونقل الآخرون أيضاً حكاياتٍ عن حالات حدثت لهم. وهدفي من الإشارة لذلك هو التحذير من أن يؤدي اطلاعك علىٰ أمثال هذه الحالات إلىٰ صدّك عن هذا السبيل فتتوهم وجوب أن تحدث لك أنت أيضاً مثل هذه الحالات. كلا، فإن للموجودات المقيدة أحكاماً متباينة ولكل منها حكمه الخاص به؛ فترد علىٰ كل شخص من الواردات أثناء السير والسلوك إلىٰ الله بما يتناسب ومقتضيات أهليته وسعته الوجودية وطبيعة مزاجه وقدرته علىٰ التقبل والتحمل، فالقابليات والاستعدادات مثلما تختلف صور الوجوه واللغات واللهجات؛ وبسبب هذا الاختلاف تختلف حتماً الواردات القلبية والآثار الوجودية ومصاديق الاستفاضة والتلقي للفيض الإلهي، ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ (النحل: ٧١)، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الإسراء: ٥٥)، ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

إذن، فعليك أن تضع هذه الحقيقة نصب عينيك إذا أعرضت عن هذه «القرية» وتوجهت شطر «المدينة». وما نقلناه عن رسالة «تحفة الملوك» من أن من تلك الآثار صدور أصوات من القلب، ذكرنا عدة نماذج لها في القصيدة اللامية من ديواني ـ وأنا أقل العباد ـ منها:

كنتُ ليلةً في انتظار قدوم الحبيب
وأجفاني تنهمر بمطرٍ وابل
كنتُ أغسلُ به بصري لكي أرىٰ حبيبي
ولكي أفوز بالنظر إلىٰ طلعته وهو جميل الخصال
اهتز بناء كل الأغيار وكأن زلزالاً قد هزَّ الجهات الست
وارتفعت أصواتٌ هائلة مثل الرعود

وكأنها كانت تأتي من الذرىٰ كالجنادل من الصخور
قلت: لقد حلت الشدائد ولهجت بالدعاء: اللهم سهل
قلت: لقد قامت القيامة ولهجت بالدعاء: اللهم مهّل
واستمرت هذه الأحوال الهائلة
إلىٰ أن خلّصنا منها حبيبنا[1]

[التطهر مقدمة لتلقي الفيوضات الإلهية]

أما الأمر الثاني فهو: إن كل الواردات التي تحصل عليها والإلقاءات والتمثلات التي تظهر لك؛ هي جميعاً داخلية وليست خارجية، وبعبارة أوضح ـ ومثلما قلنا في الفصل الخامس ـ فإن كل كلمة من الكلمات الوجودية هي جدولٌ من بحر الوجود الذي هو بحر ملكوته ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ۝٨٣﴾ (يس: ٨٣).

وانتساب الكلمات النورية للموجودات إلىٰ الوجود الحقيقي وهو الحق سبحانه هو الذي عبّر عنه الكاملون من أهل التوحيد بقولهم: «هوية كل شيء في الحقيقة شعاع هويته (تع)»، ويُعبّر عن هذا الشعاع أيضاً بتعبيرات: ربّ الشيء أو سره، أو حصته الوجودية.

وقد روي عن الإمام الصادق ـ سلام الله تعالىٰ عليه ـ أنه قال: «يفصلُ نورنا من نور ربنا كشعاع الشمس من الشمس»[2]، وروي عنه عليه السلام قولَهُ: «إن روح المؤمن لأشدَّ اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»، (كتاب الكافي، ج٢، ص:١٣٣).

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات شعر بالفارسية.
(٢) حلية الأبرار للسيد هاشم البحراني، ج ١، ص:١٤، بحار الأنوار، ج ٢٥، ص:١٧، (من الطبعة الجديدة).

إذن، فالتعبير عن هذا الانتساب بالشعاع ينص بأن الأشياء كافة لم تنزل منفصلة من العلم إلىٰ العين، بل نزلت وهي متصلة بأصلها، وأصلها هو ملكوتها: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]. فافهم.

والإنسان هو الجدول الأكبر لبحر الوجود من بين هذه الجداول، فإذا تمت تصفيته وتطهيره بصورة صحيحة صار مجرًى لماء الحياة ومجلًى ومظهراً للذات والصفات الإلهية.

والغرض من ذكر ما تقدم هو أن تعلم بأن ما يُفاضُ عليك، يُفاضُ فيك ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٧)، ويُوجد فيك مصنع اسمه جهاز الخيال وهو الذي يعطي للمعاني صورها بالقدرة الكاملة للحق سبحانه وتعالىٰ، فيصوّر كل معنى بصورته المناسبة له كمظهر للاسم الشريف.

إذن، فاعلم أن عليك ـ وأنت تسعىٰ لاكتساب العلوم والمعارف والعروج إلىٰ مقام القرب إلىٰ الله ولقاء الله ـ أن لا تتوقع ورود شيء من خارج حقيقتك عليك وحضوره عندك متجلياً لك؛ بل إن تلك العلوم والمعارف وتمثلاتها هي جميعاً تتحقق في داخلك، وأن عروجك ورقيك واشتداد سعتك الوجودية هي جميعاً متناسبة مع الكمال، يعني مع اتصاف جوهر ذاتك بالصفات الربوبية وتخلقك بالأخلاق الإلهية.

وقد استوفينا توضيح كيفية جريان هذا الفيض والقضايا الأخرىٰ المرتبطة بهذه الأمور وعرضنا الأدلة والبراهين عليها في كتاب «دروس في اتحاد العاقل بالمعقول» والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة يس: ٨٣.

واعلمْ أنه إذا تمت تصفية هذا الجدول وتطهيره تجلّت فيه الأنوار الإلهية بصورة نقية صافية، وإلا فإنّ مَثَل كينونة الحقائق الإلهية في الجداول كمثل المطر الذي ينزل من السماء طاهراً نقياً فيختلطُ بما في الجداول والمجاري والأودية من قذارات ويكتسب لونها ورائحتها. جاء في الباب العاشر من كتاب «مصباح الشريعة»: «ولتكن صفوتك مع الله تعالىٰ في جميع طاعاتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء».

واعلمْ أنك إذا حفرت بئراً ولم تصل إلىٰ الماء، ثم أردت أن تأتي بالماء من خارجها من هنا وهناك وتصبه فيها فلن تكون بئراً نافعة ولن تتفجر بالماء ولن تخدمك بالتالي. فالبئر تكون نافعة للشرب منها إذا تفجرت من ذاتها بالماء بصورة يزداد فيضان الماء منها وتزداد عذوبته كلما سحبت من مائِها. وهكذا حال الإنسان فهو لن يصل إلىٰ كماله الإنساني من خلال تعلمه لهذا المفهوم والمصطلح من هذا وذاك، فحاله حال الذي يحفر بئراً ولا يصل إلىٰ منبع الماء فيه فيعمد إلىٰ أخذ الماء من هذا المنبع أو ذاك وصبه فيها.

إذن فاجتهد في سعيك لكي تصل إلىٰ الماء رغم أنك غير منقطع ـ في الواقع ـ عن الماء. فإذا وصلتَ إلىٰ الماء عندها ستكون علىٰ ما لا يمكن وصفه من حسن الحال والبهجة. ورد في الدعاء المأثور: «اللهم غيِّر سوء حالنا بحسن حالك»[1] فللّه سبحانه حسن الحال وهو الذي قال عنه الشيخ الرئيس في الفصل الثامن عشر من

---

(١) مقطع من دعاء رسول الله ﷺ بعد الفرائض في شهر رمضان المبارك، راجع مفاتيح الجنان للشيخ القمي، فصل الأعمال المشتركة من أعمال شهر رمضان المبارك.

نمط البهجة والسرور من كتاب «الإشارات»: «أجلُّ مبتهج بشيءٍ هو الأول بذاته». فافهم.

واعلم أيضاً أن أحوال هذه الجداول تؤثر في مكاشفات الإنسان ومشاهداته وحتىٰ في ما يراه في مناماته، فتصبغها بصبغتها. إذن ففكر بصورة صحيحة، واسلك سبيل خلاصك وفلاحك وسعادتك الأبدية من خلال سلوك طريق اكتساب العقائد الحقة في كنف أستاذ مهذب قد سلك هذا الطريق ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1].

● تبصرة

وقد استوفىٰ الحديث عن أنواع الإلقاءات وتمييز الصحيح منها عن السقيم، الشيخ صدر الدين القونوي في النفحة (١٢) من كتاب النفحات (ص:٩٧، ط١ الحجرية)، والعلّامة ابن الفناري في مصباح الأنس (ص:١٥، ط١)، وكذلك العلّامة القيصري في شرحه لمقدمة فصوص الحكم (ص:٥٥ ـ ٥٦). فإن شئت فراجعها ففيها موائد عامرة بالعوائد والفوائد.

---

(١) سورة الإسراء: ٩.

الفصل العاشر:

أدب التعامل مع الله عز وجل

هدفنا في هذا الفصل بيان الأمر الأهم في الدعاء وهو حفظ الأدب مع الله، وهذا ما نتناوله ضمن سبع نقاط:

[حضور القلب وتوجهه للمدعو]

أ: إن الأدب مع الله يقتضي حضور القلب وتوجهه إليه سبحانه أثناء الدعاء والمناجاة، فإن الدعاء مع توجه القلب إلىٰ غيره سبحانه والغفلة عنه عزّ وجلّ هو سوء الأدب بعينه، ومثل هذا الدعاء لا يُقرّب بل يبعد منه سبحانه.

فالتزم بعرىٰ حضور القلب وتوجهه إلىٰ الله لكي تفوز بمقام «عند الله» ومقعد صدق عند مليكٍ مقتدر حيث يكون عبد الله عند الله. تُراجع النكتة (٤٨٣) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»[١].

أنت دائماً عند الله يا سيد إن كنت عبد الله
وكل أُنسك بالله يا سيد إن كنت من الأُنس[٢]

---

(١) راجع الملحق السابع من ملاحق هذه الرسالة.
(٢) ترجمة نثرية لبيت شعر فارسي.

[اجتناب التصرف بآثار الذكر والدعاء بغير إذن الله]

ب: الأمر الآخر الذي يقتضيه الأدب مع الله هو عدم التصرف بغير إذنه وأمره في أي شأن من شؤون عجلة نظام التكوين، أو في أي حكم من كتاب التشريع.

إذا أعطوك شيئاً فإن مقتضىٰ الأدب هو أن تكون ـ في مقابل هذه العطية ـ عبداً شكوراً لا أن تصرفها فيما شئت بغير إذن مولاك المنعم. وما أكثر أولياء الله الذين أعطيت لهم ولاية التصرف التكويني لكن التزامهم عرىٰ الأدب مع الله منعهم من الاستفادة من هذه القدرة. جاء في الفص اللوطي من فصوص الحكم: «فإن أوحي إليه بالتصرف بجزمٍ تصرف، وإن منع امتنع، وإن خُيّر اختار ترك التصرف إلا أن يكونَ ناقص المعرفة...».

وقد علق حسين الخوارزمي علىٰ هذا الكلام ضمن ترجمته له إلىٰ الفارسية فقال: «فإذا ترك المخير التصرف فإنه يكون بذلك قد عمل بمقتضىٰ العبودية لأنه فوض أمر التصرف إلىٰ الحق سبحانه وتعالىٰ تأدباً بآداب العبودية وملازمة لما تقتضيه ذاته من العجز والفقر والضعف.

أما إذا كان ناقص المعرفة فإن يختار التصرف فلا يسلك منهج التأدب بين يدي الله، لأنه لا يعرف أن الضعف والفقر والمسكنة والعجز هي سماتُهُ الذاتية، وأن التوقف فيما يرتبط بالأمور الذاتية هو أشرف وأسمىٰ، فيغفل عن احتمال أن يكون هذا التخيير ابتلاءً وامتحاناً له من قبل الله. أما العارف الكامل في معرفته فهو يعلم أن تأثير العبد وتصرفه أمرٌ عارض، وأن التأثير الذاتي الحقيقي مختص بالله جل جلاله، ولذلك فهو لا يتصرف بشيءٍ من أمور العالم إلا بأمر من الله سبحانه».

[اجتناب طلب ما سواه تعالى]

ج: والأمر الثالث الذي يقتضيه الأدب مع الله هو: أن لا تطلب منه سواه فهذه هي عبادة المحبين والأحرار. وهذا الأمر يحتاج إلىٰ همةٍ عالية. أما الذين همتهم في الأمور الدنيئة فلا يطلبون سواها. كان أحد مشائخنا - رضوان الله تعالىٰ عليه - يحثنا علىٰ تلاوة أدعية من قبيل دعاء الإمام محمد الباقر عليه السلام في الأسحار «اللهم إني أسألك من بهائِك بأبهاه وكل بهائِك بهي...»، والذي ينحصر الحديث فيه عن بهاء الله وجماله وجلاله وعظمته ونوره ورحمته وعلمه وشرفه، فلا ذكر فيه للحور والولدان، فإذا كانت الجنة حلوة فإن خالقها أحلىٰ منها:

لماذا يخضع الزاهد لهوىٰ الجنة؟ ولماذا يغفل عن خالقها[1]؟

وقد فصلنا الحديث عن هذا الأمر في رسائلنا الأخرىٰ مثل رسالتي «لقاء الله»، و«مجموعة من المقالات»، ونقلنا هناك طائفة من غرر الأحاديث الشريفة المروية بهذا الشأن فلا حاجة للتكرار. أما الأمر المهم الذي ينبغي أن نوصي به هنا فهو:

اجتهد - يا أخي - من أجل أن تكون حركتك إيجادية، والحركة الإيجادية هي المنبثقة من الحب والمعبّرة عنها أيضاً بتعبير «السير الحبّي»، وهي فوق الحركة الطبيعية بمختلف أنواعها النقلية والجوهرية وحركات الأعراض المذكورة في كتب الفلسفة وهي جميعاً من شؤون الحركة الحبيّة وظل من ظلالها.

واصطلاح السير الحبّي مقتبس من الحديث المأثور: «كنت كنزاً

---

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

مخفياً فأحببتُ أن أعرف...»[1]، ولذلك قالوا: «الحركة التي هي وجود العالم حركة الحب، وقد نبّه رسول الله ﷺ علىٰ ذلك بقوله: كنتُ كنزاً مخفياً لم أعرف فأحببت أن أُعرف. فلولا هذه المحبة ما ظهر العالم في عينه، فحركته من العدم إلىٰ الوجود حركة حب الموجد لذلك» (فصوص الحكم، الفص الموسوي، شرح القيصري، ص:٤٥٦).

إذن، فما دام السيرُ من ذلك الجانب حبيّاً، فاسعَ أنت أيضاً أن يكون سيرك من هذا الجانب حبيّاً، وقد علمت أن «السير عبارة عن تلبس الأحوال المتعاقبة»[2]. ولا يوجد مسلك أحلىٰ في مذاق العبد السالك من منهج السير الحبّي:

ظهر العالم كثمرةٍ للسير الحبّي
فوجودُ الجميع - وليس وجودك أنت وحدك - هو ثمرة للعشق
فلا سير غير السير الحبي
لأن السير بحد ذاته حبٌّ وعشقٌ ولا غير[3]

جاء في الباب العشرين من كتاب مصباح الشريعة:

«قال الصادق عليه السلام: لقد دعوتُ الله مرةً فاستجاب لي، ونسيتُ الحاجة لأن استجابتَهُ بإقباله علىٰ عبده عند دعوتِهِ أعظمُ وأجلُّ مما يريدُ منه العبد، ولو كانت الجنة ونعيمها الأبدي. ولكن لا يعقل ذلك إلا العالمون العابدون المحبون العارفون صفوةُ الله وخواصه».

---

(١) في الحديث القدسي: «كنتُ كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقتُ الخلق لكي أعرف» (موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف، ج ٦، ص:٥٠٧).
(٢) مصباح الأنس للعلاّمة ابن الفناري، ص:٢٩٥، ط ١.
(٣) ترجمة نثرية لبيتي شعر بالفارسية.

[دعوة الله بأسمائِهِ الحسنىٰ]

د: الأمر الرابع الذي يقتضيه الأدب مع الله عزّ وجلّ هو أن ندعوه بأسمائِهِ الحسنىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1].

وينبغي التدبر في الأمر الإلهي ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الذي تتضمنه هذه الآية الكريمة فهي تصرح بأن دعوة الله يجب أن تكون بأسمائِهِ الحسنىٰ رغم أنها غير متناهية.

وأسماء الله وصفاته هي عين ذاته وجميع أسمائِهِ حسنىٰ، ولكن الحديث هنا هو في أدب الدعاء ولزوم تأدب الداعي بدعوته - سبحانه - بأسمائِهِ الحسنىٰ، وهذا الموضوع هو غير موضوع كون الأسماء الحسنىٰ غير متناهية؛ عليك - في هذا المقام - أن تسمع كلام حملة الأسرار والعارفين بالآداب وتتعلم منهم لكي تصير من القادرين علىٰ التمييز. وإذا تدبرنا في المثال الذي أعرضه هنا فلعلنا نقترب من المقصود ولو بمقدار:

إذا أحسن أحدٌ إليكم وأردتم الثناء عليه أو أن تدعوه باسم معينٍ، وكانت له أسماءٌ وصفات متعددة لكنها جميعاً أصيلة في حفظَ نظام وجوده الإنساني، بحيث يؤدي فقدان أحدها إلىٰ إيجاد حالةٍ من النقص والاختلال في هذا النظام فلا يبقىٰ إنساناً سالماً. فمثلاً للعطسة والتنفس والقدرة علىٰ الأكل وهضم الطعام والقوىٰ الجنسية والغضبية والدفع والجذب ونظائرها، دور في حفظ كمالِهِ وربما دفعه فقدان أو فساد أحدها إلىٰ ترجيح الموت علىٰ الحياة. ولكن ورغم هذه المكانة التي تحظىٰ بها جميع أسمائِهِ وصفاتِهِ وقواه، فإن الأدب

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٠.

يقتضي أن تناديه بأسماءٍ خاصة مثل: يا محسن، يا كريم، يا جواد، يا واهب، ويا معطي ونظائرها، فلا تخاطبه بصفات من قبيل: يا عاطس، يا متنفس، أو يا من له قوة الباه ونظائرها؛ رغم أنها جميعاً ضرورية وحسنىٰ بلحاظ نظامه النوعي كإنسان، ولكن أدب الحوار يقتضي اختيار نظائر الطائفة الأولىٰ من الأسماء واجتناب أسماء الطائفة الثانية. وعلىٰ هذا فقس سر الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾. فافهم وتبصّر[1].

وعلىٰ ضوء ما تقدم تفهم معنىٰ «توقيفية الأسماء» وسر هذا الحكم الشريف، علىٰ أن لهذا الحكم الشريف أسراراً دقيقة أخرىٰ ذكرناها في رسالة «توقيفية الأسماء»، وعقدنا بحثاً تحقيقياً مستوعباً لمسائل هذا الموضوع[2].

وقد فسر أحد المشائخ الصفات السلبية علىٰ وفق هذا المعنىٰ، أي أنها تعني الأسماء والصفات التي لا يجيز الأدب مع الله مناداته بها أثناء الدعاء. ونعم ما قال.

وإلىٰ جانب ذلك كله من المفيد التدبر في أبيات العارف الروحي التالية:

---

(١) ينبغي أن يكون الاسم الذي يُدعىٰ به سبحانه وتعالىٰ من أسمائِهِ الحسنىٰ مناسباً للحاجة التي يطلبها الداعي، فلا ينبغي لمن يطلب التوبة أن يدعو الله تبارك وتعالىٰ بأسماء من قبيل: المنتقم، الجبار، بل ينبغي أن يدعوه بأسماء من قبيل: يا غفور، يا قابل التوب، يا رحيم ونظائرها، وهكذا، فينبغي لمن حاجته التفقه في الدين أن يدعو الله بأسماء مثل العليم، وينبغي لمن يطلب العزة أن يدعوه باسم العزيز، ولمن يطلب القوة أن يدعوه باسم القوي، ولمن يطلب الرزق بأسماء مثل: يا خير الرازقين وهكذا. [المترجم].

(٢) خصص المؤلف الباب السادس من رسالته «الكلمة العليا في توقيفية الأسماء» لهذا الموضوع.

العارفون بالآداب هم الذين تتحرق أرواحهم وقلوبهم شوقاً
فالعشاق ـ وفي كل عصر ـ محترقون
لأنهم ليسوا عبيد خرائب أرض الخراج وأعشارها
إذا قال أحدهم شططاً فلا تقل: أخطأ
وإذا تضرج بدمه شهيداً فلا تغسله
فدم الشهداء أفضل من الماء، وهذا الخطأ خيرٌ من مائةِ قولٍ صواب
لا تبحث عن قائدٍ بين السكارىٰ
فما معنىٰ أن تأمر برقع قميص الممزق؟
إن هوية العشاق معزولة عن كل الدنيا
فدينهم وهويتهم هو الله[1]

● تبصرة [الجذور القرآنية والحديثية للمصطلحات العرفانية]

تُلاحظ في أشعار وكلام السالكين إلىٰ الله كلمات من قبيل: الوجود والموجود، واجب الوجود بذاته، التجلي، العشق والعاشق والمعشوق، والساقي والكأس والشراب والخمرة والسُكر ونظائرها، فطائفةٌ من هذه الكلمات مقتبسة من نصوصٍ قرآنية وحديثية، وطائفة أخرىٰ جارية علىٰ وفق مصطلحات أهل هذا الفن، مثلما أن لكل فريق من الأدباء والفقهاء والأصوليين والكلاميين والمحدثين والقراء مصطلحات خاصة، وهي مصطلحات اعتبارية محضة توافق أهل كل فن علىٰ استخدامها دون أن تكون مقتبسة من الآيات أو الأحاديث. بل وليس ثمة ما يلزم بمثل هذا الاقتباس. ولكننا رغم ذلك نتبرك هنا بنقل مجموعة من الآيات والأحاديث التي اقتبست منها الكلمات المشار إليها ونظائرها:

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات شعر بالفارسية.

١ - ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ (الصافات: ٤٠ - ٤٧).

٢ - ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ...﴾ الآية (محمد: ١٥).

٣ - ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) - إلىٰ قوله سبحانه - يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾ (الطور: ١٧ - ٢٣).

٤ - ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا (٣٦)﴾ (النبأ: ٣١ - ٣٦).

٥ - ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) - إلىٰ قوله سبحانه - يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩)﴾ (الواقعة: ١٠ - ١٩).

٦ - ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾ (المطففين: ٢٢ - ٢٨).

٧ - ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) - إلىٰ قوله سبحانه - وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ (١٥) قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) - إلىٰ قوله تعالىٰ - ... وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾ (الدهر «الإنسان»: ٥ - ٢٢).

[بيان الصادق (ع) لمعنى وأثر الشراب الطهور]

٨ ـ وروي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ كلاماً وبياناً يعجز البيان عن الإتيان بمثله، فهو صادر عن سلالة النبوة صادق آل محمد ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ فهو نفحةٌ من العلم الإلهي وقبسٌ من نور مشكاة الرسالة وشذىٰ من نسيم رياض الإمامة، وقد روىٰ هذا الكلام الصادقي أمين الإسلام الطبرسي في تفسيره القيم «مجمع البيان» علىٰ هذا النحو:

«أي يطهرهم عن كل شيءٍ سوىٰ الله إذْ لا طاهرَ مِنْ تَدَنّسٍ بشيءٍ من الأكوان إلّا الله. رووه عن جعفر بن محمد عليه السلام»[(١)].

وأكرر هنا ما قلته في كتبي ورسائلي الأخرىٰ من أنني لم أجد بين أمة النبي الخاتم ﷺ من روي عنه كلاماً يرقىٰ إلىٰ هذا الكلام المروي عن صادق آل محمد ـ صلوات الله عليهم ـ في بيان المرتبة العليا للطهارة الإنسانية، لم أقرأْ مثل هذا الكلام ولم أسمع بمثله من أي عارف.

ويُلاحظ هنا أن أمين الإسلام الطبرسي لم يقل بشأن هذا الحديث الشريف «روي» بصيغةِ المفرد، بل قال: «رووه» بصيغة الجمع الأمرُ الذي يكشف عن أن للحديث جذوراً قوية جعلت يرويه جماعة.

وربُّ الأبرار هو ساقي الأبرار، وفي استخدام صفة «ربّ» وإضافتها إلىٰ ضمير «هم» مطلب هو:

---

(١) مجمع البيان، ٥: ٤١١، وفيه قال: «يُريدُ به نوعاً آخر يفوق علىٰ النوعين المتقدمين، ولذلك أسند سقيه إلىٰ الله، ووصفه بالطهورية، فإنه يطهر شاربه عن الميل إلىٰ اللذات الحسية والركون إلىٰ ما سوىٰ الحق، فيتجرد لمطالعة جماله ملتذاً بلقائِهِ باقياً ببقائِهِ وهي منتهىٰ درجات الصديقين، ولذلك ختم به ثواب الأبرار» (تفسير كنز الدقائق ١٤: ٦٧).

معنًى دقيقٌ للغاية يكمن في رسالةِ الحبيب
إذا لم تفهمه أنت أيها الأديب فإنني أعرفه[1]

وقد أشرنا إلىٰ هذا المعنىٰ في الفصل الخامس. والطهور في اللغة العربية صيغة مبالغة من صفة «الطاهر» فهي تفيد أنه طاهر ومطهر، فالشرابُ الذي يسقي رب الأبرار عباده الأبرار منه هو مطهر إضافة إلىٰ كونه طاهراً. والماء المضاف قد يكون طاهراً ولكنه ليس طهوراً علىٰ أي حالٍ، أما الماء المطلق فهو طاهرٌ وطهور.

[الشراب الطهور يطهر العبد من كل ما سوى مولاه]

فمن أي شيءٍ يطهر هذا الشراب الأبرار وهم أبرار؟ يجيب الإمام عليه السلام: إنه يطهرهم من كل ما سوىٰ الله سبحانه، لأنه لا يوجد طاهر من دنس كل الأكوان سوىٰ الله عز وجل. والدَنَسُ هو الكثافة والقذر، والأكوان هي الموجودات، والمراد هنا هو نقص الإمكان، فالله طاهر من نواقص الممكنات لأنه الصمد الحق سبحانه.

وهذا الشراب يُطهّر الإنسان من كل ما سوىٰ الله، فيدرك مثل هذا الإنسان بنور الشهود حقيقة ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[2] وتتجلىٰ له حقيقة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[3].

إن الشراب الذي يطلبه أصحاب القلوب الحية من «الساقي» هو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[4]، وهذا الشراب أو «الخمر» المذكور في الآيات الأخرىٰ هو الذي يترجمه هؤلاء إلىٰ

---

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر فارسي.
(٢) سورة الحديد: ٣.
(٣) سورة البقرة: ١١٥.
(٤) سورة الدهر (الإنسان): ٢١.

كلمة (مي) الفارسية، ويترجمون «الكأس» إلىٰ كلمات من قبيل: (قدح)، (جام) (پيمانه) و(پيالة). يقولُ عالمٌ دينيٌ مرموق ومتبحر في العلوم الإسلامية النقلية منها والعقلية، هو المولىٰ مهدي النراقي:

هلمّ أيها الساقي، فديتُك بروحي وفديتُ عهدك وميثاقك
اسقني خمراً يقوي عقلي وروحي لكي تنطبع في قلبي صور الروحانيين
سمعتُ أن الحكيم الجليل «أفلاطون» بدرُ أرض اليونان قد قال:
إن الخمر يبعث في القلب البهجة ويزيل الهمّ ويشفي كل الأمراض
لكن المراد ليس الخمر الذي حرمته شريعةُ رسول الإسلام واعتبرته من الخبائث
بل نطلب الخمر الذي سماه الرب الغفور شراباً طهورا
فهلمّ أيها الساقي الرؤوف واسقني قدحاً من هذا الشراب المطهر من الهموم[1].

٩ ـ نقل المجلسي في المجلد التاسع من البحار (ص: ٥٨٠) نقلاً عن كتاب «الخرائج» للقطب الراوندي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «خرج علي عليه السلام يسيرُ بالناس حتىٰ إذا كان بكربلاء علىٰ ميلين أو ميل تقدم بين أيديهم حتىٰ طاف بمكانٍ يُقال له «المقدفان»، فقال عليه السلام: قُتل فيها مائتا نبي ومائتا سبط كلُّهم شهداء، ومُناخُ ركابٍ ومصارعُ عشاقٍ، شهداءُ لا يسبقهم مَن كان قبلهم ولا يلحقهم مَن بعدهم».

ومعشوق «العشاق» الذي ذكرهم هذا الحديث الشريف هو الحق سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات شعرية بالفارسية.

١٠ ـ وفي باب العبادة من أصول الكافي (ج ٢، ص:٦٨) بإسناده إلىٰ عمر بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل الناس مَن عشق العبادة، فعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرغ لها، فهو لا يبالي علىٰ ما أصبح من الدنيا علىٰ عسر أم علىٰ يسر».

ويُلاحظ أن تعبير «عشق العبادة» مروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وفي «أصول الكافي».

١١ ـ وفي سفينة البحار مادة (عشق) عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إن الجنة لأعشقَ لسلمان من سلمان للجنة».

١٢ ـ وفي الصحيفة السجادية الثانية التي جمعها العالم المحدث الجليل الشيخ الحر العاملي صاحب كتاب «وسائل الشيعة»، يقولُ سيد الساجدين عليه السلام في مناجاة العارفين: «إلهي! فاجعلنا من الذين توشجت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعةُ محبتك بمجامع قلوبهم، فهم إلىٰ أوكار الأفكار يأوون، وفي رياضِ القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون».

اسقني ـ فداك الحسن ـ أيها الساقي بالخُم[1] فما قدر الكأس؟
اسقني اليوم نقداً فما جدوىٰ الحوالة إلىٰ الغد؟
عاطلٌ والعمل الذي يناسبني هو العكوف علىٰ الخمارة
وأجري علىٰ ذلك قبولك، فما قدر الكتاب والوثيقة[2]؟

(١) وعاء كبيرٌ يستخدم للخمر، قاموس (فرهنك عميد، فارسي ـ فارسي)، ج ١، ص:٨٧٦.
(٢) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

١٣ ـ نقل المحدث الشهير السيد الجزائري في كتابه الأنوار النعمانية وتحت عنوان «نور في الحب ودرجاته» عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن عشق وكتم وعفَّ غفر الله له وأدخله الجنة» (المصدر، ص:٣٠٣، طبعة حاج موسىٰ).

وقال السيد الجزائري: «الحبّ هو ميل الطبع إلىٰ الشيء الملتذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقاً، ثم ذكر مراتب الحب إلىٰ أن قال: «أما المرتبة الرابعة فهي العشق، واشتقاقه من «العشقة» وهي نبتٌ يلتفُ علىٰ الشجرة من أصلها إلىٰ فرعها، فهو محيط بها كما أن العشق محيط بمجامع القلب». ثم نقل حكاية وعلق عليها بالقول: «وهذه الحالة قد كانت في الحب الحقيقي، وذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام لما كانت النصال تلج في بدنه الشريف من الحروب كان الجرّاح يخرجها منه إذا اشتغل بالصلاة لعدم إحساسه بها ذلك الوقت لاشتغال قلبه بعالم القدس وملك الجبروت ـ إلىٰ أن قال ـ: وهكذا حال عشاق الله سبحانه»، وقد وصف السيد الجزائري (المصدر نفسه، ص:٣٠٧ في النور المذكور) أمير المؤمنين عليه السلام بأنه «سيد العاشقين» إذ قال: «روي أنه قال رجل لسيد العاشقين أمير المؤمنين عليه السلام: ما بالُ وجهك تعلوه الأنوار وأنت علىٰ هذا الحسن والجمال... الحديث».

والسيد المذكور هو محدثٌ مرموق من تلامذة صاحب «بحار الأنوار»، وقد أجاد في تعريفه المتقدم للعشق كمرتبة متقدمة من الحب إذا استقوىٰ.

فإذا سقط أحد الفاسدين في أسر الحبّ المفرط والعشق غير العفيف أي المنبعث من الشهوة والأهواء النفسانية، وروي حديث

شريف في ذم مثل هذا العشق الشهواني؛ فأي علاقة لذلك بالعشق الحقيقي للكمال المطلق والحب العميق والشديد للقرب من الله ولقائِهِ سبحانه وتعالىٰ؟ وما هو مسوغ النزاع علىٰ الألفاظ ولا مشاحة فيها؟

[الصدق في حب الله عز وجل]

إذن فاجتهد يا أخي في أن تكون صادقاً في حبك لله تعالىٰ سواءٌ سموك محباً أو عاشقاً؛ روىٰ الشيخ الصدوق في كتاب الأمالي عن المفضل قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن العشق، قال: «قلوبٌ خلت عن ذكر الله فأذاقها الله حبَّ غيره»[1]، ولا يخفىٰ أن هذا الحديث الشريف إنما يذم العشق الشهواني النفساني غير العفيف، فلا يوجد أيُ ذمٍ للعشقِ الحقيقي لله سبحانه، وليس في إطلاق أوصاف العاشقِ والمعشوق فيما يرتبط بالله سبحانه أي إساءة للأدب، بل قد أذنت النصوص الشريفة بذلك كما لاحظنا في النصوص التي نقلناها آنفاً.

وللمرحوم الفيض الكاشاني صاحب كتاب «الوافي» وتفسير «الصافي»، كلامٌ في هذا المقام أورده في رسالته «رياض القدس» لخصه بقوله: «وأما ما توهمه طائفةٌ من القاصرين من عدم جواز العشق والمحبة نسبة إلىٰ الحضرة الإلهية المقدسة، فهو وهم ناتج من التحجر ومن القصور عن معرفة الله سبحانه. فمعنىٰ العشق إنما هو المحبة العميقة وهيمنتها علىٰ الإنسان، وقد عبّر عنه القرآن المجيد بتعبير شدة الحب كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2].

---

(١) أمالي الصدوق، ص: ٥٣١، ح ٣.
(٢) سورة البقرة: ١٦٥.

وقد أجاد الشاعر العارف الجامي بيان حكاية إخراج النصال من بدن أمير المؤمنين عليه السلام أثناء الصلاة والتي نقلناها آنفاً عن كتاب الأنوار النعمانية للسيد الجزائري، فقد نظمها في منظومة شعرية نقلها الشيخ البهائي في الجزء الرابع من كتاب «الكشكول» (ص: ٤١٢، ط١)؛ وهي:

أسد الله سلطان الولاية علي
هو المطهر من الشرك الخفي والجلي
أصيب بسهمٍ نفذ إلىٰ بدنه عندما اشتد الوطيس في يوم أحد
أصاب رأسُ السهم زهرة بدنه فتفتحت للمحنة فيه مائةٌ من البراعم
توجه للمحراب متعبداً وأعرض عما آذىٰ الأصحاب
فقد نفذ في بدنه خنجرٌ حادٌ بمقدار طول الوردة الخنجرية[1]
وتضرج كالوردة بحمرةِ الدم القاني المتفجر منه وهو منبع الجود
سالت علىٰ مصلاه قطرات الدم الزكي كأزهار متناثرة
فرآها بعد أن فرغَ من صلاتِهِ
تساءل: ما هذه الزهور المتناثرة حول قدميّ؟
هل هي من ثمار روضة مصلايّ؟
وعندما فتحوا أبواب قلبه قال:
أقسمُ بالعالم بكل سر
أنني لم أعلم بألم السيف
رغم أنه لا يوجد مَن هو أعلم مني
لقد حلق طائري إلىٰ سدرة المنتهىٰ واستقر فيها

(١) الوردة الخنجرية (گل خنجري): نبتة لها أوراق سميكة وكبيرة، صفراء اللون، تستخدم أوراقها لصنع الحبال، يبلغ ارتفاع النبتة حدود المترين. (قاموس «عميد» ـ فارسي ـ فارسي، ج ٢، ص: ١٦٩٢).

فماذا يضيرني تمزق بدني كتمزق القفص؟
فتطهّرْ يا «جامي» من رجس البدن وكُنْ تراباً في مسير الأطهار
عسىٰ أن يحالفك ببركة هذا التراب توفيق التحول إلىٰ غبار
فتطير وتصل إلىٰ مقام الإنسانية[1]

١٤ ـ روىٰ السيد حيدر الآملي في كتابيه «جامع الأسرار» (ص:٢٠٥)، و«نقد النقود في معرفة الوجود» (ص:٦٧٦)، والفيض الكاشاني في الكلمة (١٩) من كتابه «قرة العيون»، وفي الكلمة (٣٥) من كتابه «الكلمات المكنونة»؛ عن محمد بن جمهور الإحسائي؛ أن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«إن لله تعالىٰ شراباً لأوليائِهِ إذا شربوا منه سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم».

١٥ ـ قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف:١٤٣).

١٦ ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «واللّهِ لقد تجلىٰ الله عزّ وجلّ لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون». (قوت القلوب لأبي طالب المكي، ج١، ص:١٠٠، ط مصر، كشكول البهائي، ص:٦٢٥، ط١).

وقد روي نظير هذا الكلام العرشي الصادر عن صادق آل محمد ـ صلوات الله عليهم ـ عن سيد الأوصياء أمير المؤمنين

(١) ترجمة نثرية لأبيات شعرية بالفارسية.

علي عليه السلام في عدة أماكن من نهج البلاغة وغيره، أحدها في الخطبة (١٤٥)، وهو: «فتجلىٰ سبحانه لهم في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته»، والآخر في الخطبة (١٨٢)، وهو: «تجلىٰ صانعها للعقول». والثالث مروي في روضة الكافي (ص:٧١، ط حلي)، وفي كتاب الوافي للفيض الكاشاني (ج ١٤، ص:٢٢) ضمن خطبةٍ ألقاها ـ سلام الله عليه ـ في (ذي قار)، وقال فيها: «... فتجلىٰ لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه»، والرابع في الخطبة (١٠٦) من نهج البلاغة، وهو قوله: «الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه».

١٧ ـ وفي الخطبة (٤٩) من نهج البلاغة قال عليه السلام: «فهو الذي تشهد له أعلامُ الوجود علىٰ إقرار قلب ذي الجحود»؛ وفي الخطبة (١٥٠): «الحمدُ لله الدال علىٰ وجوده بخلقه»، وقال عليه السلام في الخطبة (١٨٣): «الدال علىٰ قدمِهِ بحدوثِ خلقه وبحدوثِ خلقه علىٰ وجوده»، وقال عليه السلام في الخطبة الأولىٰ: «كائنٌ لا عن حدث، موجودٌ لا عن عدم».

١٨ ـ قال الإمام الثالث سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة: «كيف يستدلُ عليك بما هو في وجودِهِ مفتقرٌ إليك» (الإقبال للسيد ابن طاووس، ص:٣٤٩).

١٩ ـ وقال أمير المؤمنين عليه السلام في جواب سؤالٍ لأحد الرهبان عن وجه الله: «فهذا الوجود كله وجه الله، ثم قرأ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾»[1] (جامع الأسرار للسيد حيدر الآملي، ص:٢١١).

---

(١) سورة البقرة: ١١٥.

٢٠ ـ كما أجاب الوصي الإمام علي عليه السلام على سؤال هو: ما هو الوجود؟ فقال: ينبغي أن يُقال: ما هو غير الوجود[١]؟ (كتاب «كشف الحقائق» للنسفي، ص:٣١).

إذن؛ وعلى ضوء كل هذه النصوص؛ فمن الغريب أن يعترض بعض منتحلي الدين حتى على استخدام اصطلاحات: التجلي والمتجلي والوجود والموجود!

ومن المناسب هنا أن نذكر معاني بعض اصطلاحات المتعمقين في التوحيد وأرباب الذوق والعرفان وأهل الإيمان والإيقان، بهدف زيادة الآخرين بصيرةً ومعرفة:

الإنسان هو الرجل الكامل لا الصورة الإنسانية، وقد جاء في الحديث القدسي: «الإنسان سري وأنا سره»[٢].

«پيرمغان»[٣] رئيس المؤبدين[٤]: هو أمير المؤمنين عليه السلام.

«بزم»، مجلس الأنس: هو المحفل الخاص لأهل الحق.

التجلي هو نور المكاشفة الذي يتجلى في قلب العارف السالك.

«ترسا» أو «ترسابچه»: الراهب المسيحي والحبر والمراد إحدى الصفات الذميمة للنفس الطاهرة.

---

(١) واضحٌ أن القول مترجم عن الفارسية فلم نجد النص العربي الأصلي في المصادر التي بين أيدينا.

(٢) لم نجده في المصادر التي بين أيدينا.

(٣) أبقينا بعض المفردات باللغة الفارسية لاستخدامها بالذات وليس مرادفاتها في الشعر العرفاني الفارسي.

(٤) المؤبد: لقب عالم الدين الزرادشتي.

الخرابات: مقام الفناء ويطلق علىٰ أصحاب هذا المقام وصف الخراباتيين.

الخال: كناية عن وحدة الذات الإلهية المطلقة.

الخط: عبارة عن ظهور تعلق الأرواح بالأجسام.

الخمّار: وصف يطلق علىٰ المشائخ الكاملين والمرشدين الواصلين.

دير المؤبدين: كناية عن مجلس العرفاء والأولياء.

«رند»، المتحرر واللا أبالي: وصفٌ يرمزُ به إلىٰ الأولياء والعرفاء الذين تطهروا من غبار كدورات البشرية.

الساقي: كناية عن الفياض المطلق، وقد يستخدم أحياناً للإشارة إلىٰ الساقي من حوض الكوثر «ساغر»، كأس الخمر الصافي: المراد منه قلب العارف.

الشاهد: كناية عن المعشوق.

الشراب: كناية عن بهجة المحبة وجذبة الحق تبارك وتعالىٰ.

العشق: كناية عن مقام الولاية العلوية المطلقة للعارف.

الغمزة والقبلة: كناية عن الفيوض والجذبات القلبية.

«قلندر»، المتحرر: كناية عن صاحب مقام الإطلاق المتحرر حتىٰ من قيد الإطلاق.

الكنيسة والدير والمعبد: كناية عن عالم المعنىٰ والشهود.

المشاهدة والمكاشفة والمحاضرة: حضور قلب الإنسان.

الزلف: كناية عن المرتبة الإمكانية للمحسوسات والمعقولات.

● تبصرة [في مراتب التوحيد]

ما قاله الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[1]، من أن المقصود هو شراب الأبرار الذي يطهرهم من كل ما سوىٰ الله؛ يعبرُ عن المعنى «الأسمى» الأعلىٰ «لمقام الوحدة» الذي ذكره المحققون من أهل الله تعالىٰ في صُحفهم النيرة، ومنهم العارف الجندي في شرح الفص الشيشي من فصوص الحكم (ص: ٢٦٠، ط١) والعلّامة ابن الفناري في مصباح الأنس (ص: ١٩٥):

«إنّ العامّة من أهل الله يرون التّوحيد وهو ستّة وثلاثون مقاماً كليّاً كما نطق بها القرآن في مواضع عدّة فيها ذكر لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ في كلّ موضع منها نعت مقام من مقامات التّوحيد.

وأمّا الخاصّة فيرون الوحدة، فإن التّوحيد فيه كثرة الموحِّد والموحَّد والتّوحيد وهي أغيار عقلاً عاديّاً، والوحدة ليست كذلك.

وأمّا خاصّة الخاصّة فيرون الوحدة في الكثرة ولا غيريّة بينها.

وخلاصة خاصّة الخاصّة يرون الكثرة في الوحدة.

وصفاء خلاصة خاصّة الخاصّة يجمعون بين الشّهودين. وهم في هذا الشّهود الجمعي على طبقات: فكامل له الجمع، وأكمل منه شهوده أن يرى الكثرة في الوحدة عينها ويرى الوحدة في الكثرة كذلك شهوداً جمعيّاً، ويشهدون العين الأحديّة جامعة بين الشّهودين في الشّاهد والمشهود. وأكمل وأعلى وأفضل أن يشهد العين الجامعة مطلقة عن الوحدة والكثرة والجمع بينها، وعن الإطلاق المفهوم في

---

(١) سورة الدهر (الإنسان): ٢١.

عين السّواء بين ثبوت ذلك كلّها لها وانتفائه عنها. وهؤلاء هم صفوة صفاء خلاصة خاصّة الخاصّة».

[الإقرار بنسبة الخير إلى الله والشر إلى النفس]

هـ: الأمر الخامس الذي يقتضيه الأدب مع الله والذي يحظىٰ بأهمية كبرىٰ هو المعبر عنه بموضوع «الوقاية» المستند إلىٰ حقيقة «الخير بيديك والشر ليس إليك»[1]، بمعنىٰ أن يجعل العبد نفسه وقايةً للحق سبحانه لكي يتصف بتقوىٰ الخواص ويصبح متقياً بهذا المعنىٰ. لأن تقوىٰ العوام تعني اتقاءهم ارتكاب المناهي، أما تقوىٰ الخواص فهي تعني اتقاءهم نسبة الكمالات والأفعال والصفات إلىٰ أنفسهم؛ أما تقوىٰ أخص الخواص من الكاملين فهي اتقاءهم إثبات وجود الأغيار مع الحق سبحانه بحسب الذات والصفات والأفعال.

وهذه هي مراتبٌ ثلاث تسبقُ الوصول إلىٰ مقام الجمع وهي مراتبُ التقوىٰ «لله»، أما مراتبُ التقوىٰ «بالله» والتقوىٰ «في الله» فهي تكون عند البقاء بعد الفناء، والثمرة الملازمة لكل مرتبة من هذه المراتب، هي مرتبة من مراتب «الفرقان» المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾[2]، وأعظم وأعلىٰ مراتب هذا الفرقان هو الملازم لمقام الفرق بين الجمع. (شرح القيصري لفصوص الحكم، ص:١٩٩).

استند الشيخُ العارف ـ ضمن حديثه عن التأدب بين يدي الله سبحانه في الفص الآدمي من فصوص الحكم ـ إلىٰ قوله عز وجل:

---

(١) المحجة البيضاء، ١: ٣٥٩ من أدعية تكبيرات استفتاح الصلاة.

(٢) سورة الأنفال: ٢٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1]، وقال: «فقوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعلوا ما بطن منكم ـ وهو ربكم ـ وقاية لكم، فإن الأمر ذمٌّ وحمد، فكونوا وقايته في الذمِ، واجعلوه وقايتكم في الحمد، تكونوا أدباء عالمين».

ويقول الخوارزمي في توضيح هذا القول: «استشهد الشيخ بالآية الكريمة، وقام ـ من مقام المطّلع ـ بتعليم السالك حقيقة التأدب في حضرة الحق سبحانه، لكي يزداد نوراً إلىٰ نوره فلا يقع في مهالك الإباحة تحت دعوىٰ أن مقتضىٰ التوحيد الأفعالي نسبة الخير والشر إلىٰ الحق سبحانه؛ فإذا نسب السالك الخير والشر إلىٰ الحق سبحانه ـ قبل تزكية النفس وتطهيرها ـ فلعله يهلك في وادي الإباحة، وإذا اتصف ـ بعد طهارة النفس ـ بنسبةِ القبائح إلىٰ الحق سبحانه وقع في إساءة الأدب.

ولذلك فلا غرابة أن يكون معنىٰ التقوىٰ هنا هو اتخاذ الوقاية فقال: إن معنىٰ الآية هو: اجعلوا ما ظهر منكم ـ وهو الجسد والنفس الطبيعية ـ وقاية لربكم؛ بمعنىٰ أن تنسبوا النقائص إلىٰ أنفسكم لكي تكون هذه النسبة وقاية لربكم عن الذم. أما ما بطن منكم ـ وهي الروح التي تربيكم ـ فاجعلوها وقاية لكم في الحمد، بمعنىٰ أن تنسبوا الكمالات إلىٰ ربكم، مثلما فعل الملائكة فيما حكاه القرآن الكريم من قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[2].

إذن فالأمر يتعلقُ بالذم والحمد، فكونوا وقاية لربكم عن الذم

---

(1) سورة النساء: ١.

(2) سورة البقرة: ٣٢.

ووقاية لأنفسكم عن الحمد، وبذلك تسلكون مسالك الأدب وتنتهجون مناهج العلم والمعرفة؛ وتتخلصون ـ بنسبتكم الكمالات إلىٰ الله سبحانه ـ من ظهور (الإنيّات) ومن أسر بقيود الوجود، فلا يكون للشيطان ـ حينئذٍ ـ سلطاناً عليكم. أجل:

لا يوجد مرضٌ أخطر عليك من توهم الكمال، أيها المغرور الضال[1].

وقد قال الشيخ في «الحكمة القدرية»: «لا قدرة ولا فعل إلّا لله خاصة»، ولذلك فهو سبحانه وتعالىٰ مبدأُ كل كمال وجمال».

[تعلم أدب الأنبياء (ع) والتحلي به]

وينبغي الرجوع إلىٰ القرآن الكريم وحديثه عن أدب الأنبياء عليهم السلام مع الله تعالىٰ لتعلم الأدب الأقوم إذ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[2] فمنطقُ صفي الله آدم المؤدّب بآداب الله هو ﴿. . .رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف: ٢٣) أما إبليس غير المؤدب فهو يقول: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦) فذاك السعيد ينسب الظلم إلىٰ نفسه، في حين ينسب هذا الشقي الكافر الإغواء إلىٰ الحق سبحانه تعالىٰ!!

ويقولُ إبراهيمُ خليل الرحمٰن: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴿٨١﴾﴾ (الشعراء: ٧٨ ـ ٨١)، فهو ينسب المرض إلىٰ نفسه وينسب إلىٰ الحق سبحانه الشفاء والهداية والإطعام والسقي والإماتةِ والإحياء.

---

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

(٢) سورة الإسراء: ٩.

وقد عرفت الذكر اليونسي المحكي عن يونس النبي عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء: ٨٧). ونقل سبحانه وتعالىٰ قول أيوب النبي عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴿٨٣﴾﴾ (الأنبياء: ٨٣). ووصف سبحانه خاتم أنبيائهِ صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴿٤﴾﴾ (القلم: ٤). ولن تجد سواه صلى الله عليه وآله موصوفاً بهذا الوصف العظيم.

[حفظ الحدود]

و: والأمر السادس الذي يقتضيه الأدب مع الله اجتناب التعدي علىٰ الحدود في الحدود: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (الأعراف: ٥٥)، وفي المجمع: «عن أبي مجلز: قيل: هو أن يطلب منازل الأنبياء فيجاوزُ الحدَّ في الدعاء»[1].

● تبصرة [في التطلع نحو منازل الأولياء (ع)]

من الضروري ـ في هذا المقام ـ الإرشاد إلىٰ حقيقة أن مظاهر الولاية المطلقة ووسائط الفيوضات الإلهية عليهم السلام قد دعوا الناس بنداء: تعالوا إلينا؛ أي تعالوا إلىٰ ذرىٰ المعرفة السامية التي يستقرون عليهم السلام فيها؛ أي أنهم عليهم السلام قالوا للناس: انظروا إلينا وحلقوا باتجاه منازلنا؛ ومعاذ الله أن تكون دعوة تلك الأرواح الطاهرة والأفواه العطرة عليهم السلام صادرةً علىٰ نحو السخرية والاستهزاء والهزل واللغو: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧).

---

(١) مجمع البيان ٢: ٤٢٩، وراجع تفسير كنز الدقائق ٥: ١٠٨، والآية هي: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

إذن، فإن كنت ـ يا عزيزي ـ من السعداء فعليك أن تلبي هذه الدعوة باعتبارها دعوة حقيقية وليست مجازية، فبذلك ترتفع ـ علىٰ قدر علو همتك ـ إلىٰ المقامات السامية والدرجات الرفيعة، وتفوز بمقام قرب النوافل بل وبمقامِ قرب الفرائض، وإن كان من غير الممكن أن ترقىٰ إلىٰ مراتب هؤلاء الداعين عليهم السلام في العبودية والنبوة والرسالة والإمامة التشريعية.

وهذا هو نفسه مقام الولاية التكوينية الذي يجب الفوز به من مائدة الرحمة الرحيمية، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في رسائل: «نهج البلاغة» و«الإنسان الكامل في رؤية نهج البلاغة»، وعرضنا بشأنه براهين عقلية وأدلة نقلية وإشارات عرفانية دقيقة. وقد سجلناه في ديوان «دفتر القلب»:

اسمعْ من الحق تعالىٰ نداء: تعالوا

فقد دعاك به للعروج إلىٰ العُلىٰ

ماذا كنت فصرت أهلاً لأن يوجه لك هذه الدعوة بلسان صادق؟

ما الذي تبحث عنه في هذه المستنقعات؟

ولماذا تبتعد عن تلك الأزهار والرياض؟

أنت في الأصل صورةٌ لجليسك العظيم وخليفتُهُ الفريد

فليس ثمة حدٌّ أمامك لأي فعل وليس ثمة تمييز

فأنت السلطان العزيز

لماذا التواني وطول الأمل؟

تحرك ـ ما دام رأس المال بيدك ـ وحقق للقلبِ أمنيته[1]

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات منظومة بالفارسية.

[النبوة التشريعية والنبوة المقامية]

من هنا، فإنَّ علىٰ من يرىٰ أن طلب منازل الأنبياء مصداقٌ لتجاوز الحدود في الدعاء؛ أن يميزُ بين النبوة التشريعية والنبوة المقامية.

و«النبوة المقامية» هي ـ حسب اصطلاح الخاصة؛ أعني أهلُ الولاية ـ النبوة العامة، وقد يعبرون عنها أحياناً بنبوةِ التعريف في مقابل نبوة التشريع، وقد أشار الشيخ الرئيس إلىٰ النبوة العامة هذه في الفصل الثاني من المقالة الرابعة في قسم النفس من كتاب «الشفاء» (ص:٣٣٦، ج١، ط١)، وهذا الفصل هو من غرر فصول قسم النفس من الكتاب المذكور.

وفي مبحث النبوة العامة إنباءٌ وإخبارٌ ومعارف إلهية. بمعنىٰ أن الولي يطلعُ في مقام «الفناء في الله» علىٰ الحقائق والمعارف الإلهية، فإذا رجع من مقام روضة الأسرار هذا أنبأ وأخبر عن تلك الحقائق. وهذا المقام لا يختص بالنبي والرسول التشريعي، بل يشمل الأولياء أيضاً، ولذلك يسميه أهل الولاية باسم النبوة العامة وبالأسماء الأخرىٰ المذكورة آنفاً. وللخواجه المحقق الطوسي كلامٌ قيّمٌ للغاية في هذا الباب أورده في كتاب التجريد حيث قال: «وقصة مريم وغيرها تعطي جواز ظهورها (المعجزات والكرامات) علىٰ الصالحين»[1].

أجل، إن ظهور الكرامات والأمور الخارقة للعادة، أمرٌ جائزٌ

---

(١) تجريد الاعتقاد للمحقق الطوسي: ٢١٤، المقصد الرابع في النبوة، طبعة مكتب الإعلام الإسلامي في قم، بتحقيق السيد محمد حسين الجلالي.

لغير الأنبياء أيضاً كما حدث لمريم ـ سلام الله عليها ـ وغيرها ممن لم يكونوا من الأنبياء وظهرت الكرامات لهم؛ ولكن يجب أن يكونوا متأدبين بآداب الأنبياء لكي يكتسبوا الأهلية اللازمة، تدبر في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ (مريم: ١٦ ـ ١٧)، وتدبر أيضاً في قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ـ إلىٰ قوله تعالىٰ ـ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (آل عمران: ٣٥ ـ ٤٣).

لن تغلق أمامك أيٌّ من أبواب الغيب
إذا كانت نفسك مطهرة من كل عيب وريب[(١)]

[التحلي بحقيقة عبودية الأحرار]

ولكن ينبغي الانتباه أيضاً ـ وكما قلنا سابقاً ـ إلىٰ لزوم أن تكون العبادة عبادة حبّ وهي عبادة الأحرار، فلا يكون الهدف منها طلبُ ظهور الكرامات والأمور الخارقة للعادات والفوز بوصال حور العين وبالجنات، فهذه هي عبادة العبيد. عليك أن تتعبد لله وحسب وهو سيعطيك أفضل من كل ما يمكن أن تتصوره، بل إن العبادة باطلة إذا لم تكن قربة إلىٰ الله.

[تعظيم أسماء الله عز وجل]

ز: الأمر السابع الذي يقتضيه الأدب مع الله تعالىٰ تعظيم أسمائِهِ عزّ وجلّ بصورةٍ مطلقة، سواءٌ من جهة الألفاظ أو من جهة التوجه والنية؛ وسواء التدوينية منها أو التكوينية. فتدبر ترشد إن شاء الله.

---

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

وأنت ترىٰ في الأحاديث الشريفة؛ كيف أن وسائط الفيض الإلهي للحق سبحانه، يذكرون اسمه مقروناً بالتعظيم كأن يردفونه بعباراتٍ من قبيل: تبارك وتعالىٰ أو عزّ وجلّ ونظائرهما، وهكذا الحال مع لزوم التأدب بتعظيم الأسماء الشريفة لوسائط الفيض الإلهي ـ صلوات الله تعالىٰ عليهم ـ وقد خاطب الحق سبحانه وتعالىٰ نبيه الأكرم ﷺ قائلاً: «عظم أسمائي»[1].

أجل، يجب الالتزام بالأمر الإلهي في الموارد التي لم يأذن المولىٰ ـ جل شأنه ـ بذلك، مثل تكبيرة الإحرام، فيجب الالتزام بالصيغة التي أمر بذكره بها دون إضافة، وهذا ما أفاده وبصورة مفصلة المرحوم حجة الإسلام السيد محمد باقر الرشتي في كتاب «تحفة الأبرار» حيث قال:

«تكبيرة الإحرام ركنٌ في الصلاة، فالإخلال بها ـ عمداً أو سهواً ـ سببُ لبطلان الصلاة، وسواءٌ كان الإخلال بها نفسها أو بجزءٍ منها أو بأمر معتبرٍ فيها، وسواءٌ كان الإخلال بأحدِ جزأيها أو ببعض أجزاء أحدهما بالتبديل أو الإسقاط. وعليه، تبطل الصلاة بالإتيان بلفظ الجلالة مجرداً عن خبر أو بالعكس حتىٰ لو كان المحذوف مستتراً في النية.

والحكم نفسه يجري علىٰ التبديل، سواءٌ كان تبديلاً لاسم الجلالة باسم آخر من الأسماء الإلهية، كأن يُقال: الرحمنُ أكبر، أو الخالق أكبر وهكذا؛ أو تبديل اسم التفضيل بما يشابهه كأن يقول: الله أعظم، ونحو ذلك، أو تبديل الاسمين معاً مثل: الرحمن أعظم،

---

(١) ورد مضمونه في حديث المعراج المروي في إرشاد القلوب وغيره.

ونحو ذلك؛ أو تبديل أجزاء أحدهما مثل أداء حروفهما من مخارج غير مخارجها، مثل أداء الهمزة من مخرج العين، أو أداء الهاء من مخرج الحاء وهكذا. فالصلاة باطلة في جميع هذه الحالات؛ كما أنها تبطل في حالات الزيادة سواء كانت كلمة مطابقة للواقع دالة علىٰ تعظيم الله ـ جل شأنه ـ كأن يقول: الله جل شأنه أكبر، أو الله الأفضل أكبر، أو الله أكبر من أن يوصف، أو الله أكبر من كل شيءٍ، أو بصور أُخر».

الفصل الحادي عشر:

سر استجابة الدعاء

البحثُ في هذا الفصل هو بشأن سر استجابة الدعاء[1] وكون الدعاء ـ بحد ذاتِهِ ـ من الأسباب المؤثرة فلا يخالف سنة الله عزّ وجلّ الجارية في خلقه.

إن الإنسان ـ في الأصل ـ عاجزٌ عن نسبة الفروع إلىٰ أصولها وإسناد المجازاة إلىٰ عللها وربط الثواب بموجباتِهِ في الأمور التكوينية، لكنه ينسب ـ وبحكم العادة والمشاهدة والتجربة ـ بعض هذه الأمور إلىٰ أصولها ويعرف بأنها فروع لهذه الأصول، لكنه لا يعرف كيفية صدورها عنه فهو عاجزٌ عن إدراك سر وحقيقة ذلك.

فمثلاً؛ إذا لم يكن قد سمع أو شاهد أن عنقود العنب يخرج ـ

---

(١) المقصود من تعبير «سر استجابة الدعاء» هنا ليس الشروط التي ينبغي أن تتوفر لكي يستجيب الله دعاء الداعي، فالاستجابة متحققة حتماً مع تحقق حقيقة الدعاء كما صرحت بذلك آية الأمر الإلهي بالدعاء.
أما المقصود من تعبير «سر استجابة الدعاء» في هذا الفصل فهو حقيقة فاعلية دور الدعاء ضمن القوانين والسنن الإلهية الحاكمة في عالم الوجود، باعتبار أن الدعاء إحدىٰ الأسباب والوسائل لبلوغ الغايات، لكنها من الأسباب ذات الفاعلية الخاصة التي فوق دائرة فاعلية الأسباب العادية، ولذلك فهو يرد القضاء، وقد أُبرم إبراماً، كما ورد في الأحاديث النبوية. [المترجم].

في نظام التكوين ـ من شجرة الكرم، فكيف يمكنه أن ينسبه إلىٰ هذه الشجرة؟ وما هو مكمن السنخية بين عنقود العنب وبين الشعر؟ رغم أننا نعلم أن هذه الثمرة تظهر من شجرة الكرم وأنها فرعٌ لذلك الأصل.

وإذا فرضنا أن أحدنا قد خُلق فجأةً في هذه النشأة الطبيعية وشاهد مجموعةً من هذه الثمار المتنوعة معزولة عن أشجارها وموضوعة في سلة واحدة، فكيف يمكنه أن ينسب عنقود العنب إلىٰ شجرته، وعرجون التمر إلىٰ شجرته، وكيف يفعل مع الموز والتوت؟

[تناسب الجزاء مع العمل]

الأمر نفسه يصدق علىٰ جزاء أفعال الإنسان وأحواله وأقواله ونياته، فنحن نعلم ـ استناداً إلىٰ البراهين العقلية والأدلة القرآنية الصادقة ـ كونه ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[1]، أي أن ثمة موافقة ومناسبة بين كل فعل وجزائِهِ، فهو جزاءٌ قائمٌ علىٰ ضوء حساب دقيق. يقول سبحانه في سورة النبأ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[2]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورىٰ: ٣٠). فنحن نعلم بوجود نسبة خاصة بين الأطعمة والأدوية وكونها مؤثرةً في سلامة البدن أو في سلبه السلامة؛ كما نعلم بوجود مصالح معينة فيما أمر الله سبحانه به، وكذلك بوجود مفاسد معينة فيما نهىٰ عنه.

ونحن ندرك جيداً طبيعة وسر العلاقة بين الفعل والجزاء في

---

(١) سورة النبأ: ٢٦.
(٢) سورة النبأ: ٣٦.

بعض الموارد، وندرك ـ بدرجة أقل ـ سر هذه العلاقة في موارد أخرىٰ، ونعرف شيئاً يسيراً من وجه الارتباط بين الفعل والجزاء في موارد أخرىٰ، في حين نعجز عن معرفة وجه الارتباط بين الكثير من الموارد الأخرىٰ مثلما نحن عاجزون عن معرفة طبيعة العلاقة بين الفواكه والثمار وأصولها.

فمثلاً روىٰ الصدوق في المجلس (٨٤) من كتاب «الأمالي» بسنده عن مجاهد عن أبي سعيد الخدري قال: «أوصىٰ رسولُ الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا علي؛ لا تجامع امرأتك بشهوةِ امرأةِ غيرك، فإني أخشىٰ إن قضي بينكما ولدٌ أن يكون مخنثاً مؤنثاً مخبلاً».

إن العلماء المتدبرين في هذا الحديث يفهمون شيئاً من وجه المناسبة بين النكاح بالصورة المذكورة وبين جزائِهِ، ولكن ليس من اليسير معرفة سر ذلك وطبيعة ظهور الجزاء المذكور في هذا الحديث الشريف الذي رواه أيضاً السيوطي في كتاب «الجامع الصغير». كما أن من الصعب معرفة سر كون وطء المرأة وهي حائضٌ علة لإصابة الولد الناتج عن ذلك بالجذام كما ينص علىٰ ذلك الحديث الشريف: «مَن وطأ امرأتَهُ وهي حائض فقُضِي بينهما ولدٌ فأصابه جذامٌ فلا يلومن إلا نفسه»(١)، فيلزم لمعرفة طبيعة هذا التأثير إجراء تحليلات طبية وتحقيقات علمية متنوعة. ونظائر هذه الأحاديث الشريفة كثيرة يمكننا أن نعرف وجه الارتباط بين ما تذكره في الكثير من الموارد ونعجزُ عن فهم الكثير منها.

---

(١) راجع الباب ٢٤ من أبواب الحيض من كتاب الطهارة من وسائل الشيعة ج ٢، ص:٣١٧، وكتاب مَن لا يحضره الفقيه، ج ١، ص:٥٣، وعلل الشرائع، ج ٢، ص:٥١٤.

[محورية العلم والعمل]

والتدبر الصحيح والدقيق في الأصول العقلية والطبيعية والطبية النفسية، يهدي إلىٰ معرفة سر هذه الحقيقة القطعية الجازمة وهي: أن العلم والعمل هما العنصران الأصليان اللذان يصوغان شخصية الإنسان، وأن للأطعمة والأوقات والأمكنة وحتىٰ لأمزجة الوالدين وأوضاعهما النفسية والبدنية أثناء انعقاد النطفة تأثيراً كبيراً في تكوّن الولد وفي أخلاقه وصفاته الظاهرية والباطنية؛ وعندها تتضح ماهية العوامل التي تصنع شخصية الإنسان؛ بل ومن الملاحظ بوضوح أن الأمور الداخلية التي تعرضُ علىٰ الإنسان نتيجة لما ينزل به من حوادث متنوعة مادية ومعنوية، تؤثر بقوةٍ في تغيير لون وجهه وتغيير مزاجه وذوقه وأفكاره وجميع أوضاعه. فالإنسان هو - في الواقع - خلاصة لأفعاله وأحواله ونواياه وسعيه؛ وبعبارة أخرىٰ فالإنسان هو ثمرة أعماله وجزاءٌ لها: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ (هود: ٤٦).

[الثمرة المباركة لدوام التوجه لله سبحانه]

إن للذنوب والجزاء والثواب، وكذلك للدعاء والذكر وحضور القلب والمراقبة آثاراً تكوينية عجيبة في داخل ذات الإنسان وفي خارجها، فالذي يجعل فكره دائماً متوجهاً إلىٰ حضرة القدس الجبروتي؛ تؤدي إشراقات نور الحق سبحانه علىٰ قلبه إلىٰ تصفيته وتطهيره وبعث نور وضياء فيه، لأن للنفس الإنسانية قابلية التطبع والاصطباغ بصبغةِ الجوار، ولذلك يتطبع المصاحب للملكوتيين بطباعهم، والسعيد مَن يتصف بصفاتهم، وهذه هي سعادة الإنسان الحقيقية؛ يقول الفارابي في كلام قيم أورده في كتاب المدينة الفاضلة:

«... السعادة وهي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في

الوجود إلىٰ حيث لا تحتاج في قوامها إلىٰ مادة، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام في جملةِ الجواهر المفارقة للمواد، وأن تبقىٰ علىٰ تلك الحال دائماً أبداً إلا أن رتبتها تكون دون رتبة العقل الفعال، وإنما تبلغ ذلك بأفعال ما إرادية، بعضها أفعال فكرية وبعضها أفعال بدنية. . .» (المدينة الفاضلة، ص:٦٦، ط مصر).

[التحلي بصفات الملكوتيين]

والذي يتصف بصفات الملكوتيين يصيرُ ذا عزمٍ وهمةٍ وإرادة. يقولُ الشيخ الأجلُ ابن سينا في وصف هذه الهمة فيِ الفصل الثاني من المقالة الرابعة من قسم النفس في كتاب الشفاء، وهذا الفصل هو أهم فصول قسم النفس: «وقد يتفق في بعض الناس أن تُخلق فيه القوةُ المتخيلة شديدة جداً غالبة حتىٰ أنها لا تستولي عليها الحواس ولا تعصيها المصورة، وتكونُ النفسُ أيضاً قوية لا يُبطلُ التفاتُها إلىٰ العقل، وما قَبِلَ العقلُ انصبابها إلىٰ الحواس، فهؤلاء يكونُ لهم في اليقظةِ ما يكونُ لغيرهم في المنام» (المصدر، ص:٣٦٦، ج١، ط١)، بل ـ وحسب قول الشيخ العارف صاحب فصوص الحكم في الفص الإسحاقي ـ فإنه: «بالوهم يخلقُ كل إنسان في قوةِ خياله ما لا وجود له إلّا فيها، وهذا هو الأمر العام، والعارف يخلقُ بهمتِهِ ما يكونُ له وجود من خارج محل الهمة ولكن لا تزال الهمة تحفظه. . .».

[للأعمال آثارٌ تكوينية]

إذن فسرُ استجابة الدعاء يتحققُ في النفوس الإنسانية بإذن الله التكويني؛ ومن هنا فاعلمْ أن للدعاء والذكر والثواب وكذلك

للمعاصي آثاراً تكوينية، وهذا الأمر لا يعارضُ سنةَ الله الجارية وإنْ كنا نعجز عن تفهم وجه الارتباط مثلاً بين الذنب وآثاره السيئة في الكثير من الموارد.

وعندما نراجع الأحاديث الشريفة نرىٰ أن السفراء الإلهيين عليهم السلام يصرحون بأن لملكات الإنسان صورَ حيوانات متنوعة[1]، فالإنسانُ المنحرف يُحشر يوم القيامة بصورةٍ حيوانية تناسب الملكات القبيحة التي اكتسبها، فيظهر بصور الحيوانات التي تعبّر عنها ملكاته، وفي المقابل؛ فإن الإنسان الذي اكتسب الملكات الحسنة ببركةِ سيره علىٰ الصراط المستقيم، يُحشر بصور الأرواح الطيبة وملائكة عليين المهيمنين، وبهيئةٍ جميلة محببة هي صورة الملكات التي تحققت في ذاته.

من هنا يتضح أن البدن الأخروي للإنسان يشتمل علىٰ نوعين: مكسوب ومكتسب لأنه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[2]. وهذه الأبدان يحملها الإنسان معه من هذه النشأة، بمعنىٰ أن بذورها وجذورها تتكون في هذه الحياة الدنيا. فافهمْ.

[خطورة عواقب الذنوب]

جاء في دعاء كميل - وهو دعاء الخضر عليه السلام علّمهُ الوصي عليه السلام لتلميذه كميل فاشتهر باسمه، وقد ذكرت ذلك مفصلاً في رسالة «الولاية التكوينية» من كتاب (مجموعة مقالات، ص: ٦٤ - ٦٦)[3]: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهم اغفر لي

(١) روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «يُحشر بعض الناس علىٰ صورةٍ تحسن عندها القردة والخنازير». (كتاب علم اليقين، الفيض الكاشاني، ج ٢، ص: ٩٠١).

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) راجع الملحق الحادي عشر من ملاحق هذه الرسالة.

الذنوب التي تنزلُ النقم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء»، وروي عن الإمام الصادق عليه السلام في باب تفسير الذنوب من أصول الكافي (ج ٢، ص: ٣٢٤). قال: «الذنوب التي تغير النعم البغي، والذنوب التي تورث الندم القتل، والتي تنزل النقم الظلم، والتي تهتك الستر شربُ الخمر، والتي تحبس الرزق الزنى، والتي تعجل الفناء قطيعة الرحم، والتي ترد الدعاء وتُظلمُ الهواء عقوق الوالدين».

ويبدو أن ما ذكره عليه السلام في هذه الفقرات الخمس هو علىٰ نحو بيان بعض المصاديق وليس علىٰ نحو الحصر، وفهم كيفية الارتباط بين هذه الذنوب وآثارها يتيسر للأوحدي من الناس من خلال التفكر الدقيق فيها. وهذه الفقرات من الدعاء ونظائرها هي تفسير وبيانٌ لقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ (الرعد: ١١).

ولكن بالرجوع إلىٰ باب «عقوبات المعاصي» من كتاب الكافي (ج ٢، ص: ٢٧٧)، وباب «أصناف عقوبات الذنوب» من كتاب «الوافي» للفيض الكاشاني (ج ٣، ص: ١٧٣)، تجد أن المعصوم عليه السلام يقول: «إذا فشا الزنى ظهرت الزلازل» أو «ولم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء» وغيرها من الأحاديث الشريفة المروية في هذا الباب، فنحن نعجزُ عن فهم وجه الارتباط والسببية بين الذنوب وعقوباتها التي تذكرها، لكن ما يقوله المعصوم هو محض الحقيقة بلا ريب. يقول العارف الرومي في بداية الدفتر الأول من ديوانه «المثنوي» معبراً عن مفاد هذه الأحاديث الشريفة:

ينقطع المطر لمنع الزكاة ويؤدي الزنى إلىٰ انتشار الوباء
فكل ما ينزل بك من ظلمات وغم
هو نتيجة للعصيان وقلة الحياء[1]

وقد خصص الشيخ الرئيس النمط العاشر من كتاب «الإشارات» وهو في أسرار الآيات لبيان هذه الحقيقة، ومراده من كلمة «الآيات» الأمور الغريبة التي تصدر عن أولياء الله، ومراده من «الأسرار» وجوه وعلل صدورها عنهم. وقد شمر عن ساعد الهمة في هذا النمط القيّم لبيان أن صدور هذه الأمور الغريبة موافق لسنن الطبيعة ومنهاج البرهان العقلي، بل ولمشاهدات عامة الناس وتجاربهم العادية. وحقاً فإن الأنماط: الثالث والسابع والثامن والتاسع والعاشر من هذا الكتاب العظيم في معرفة النفس، هي من الذخائر المعرفية القيمة للغاية.

كما أن له بياناً كاملاً متقناً للغاية في إثبات الأصل القويم الذي أشرنا إليه، وقد أورده في آخر المقالة الرابعة من كتاب النفس من مصنف «الشفاء»، وهو جدير بأن ننقله هنا تبركاً ونتشرف بترجمته[2]، وينبغي العلم بأن نقل كلام هؤلاء الأعاظم ليس من باب معرفة الحق من خلال الرجال فهذه سنة المقلدين، بل هو من باب اختيار القول الحق تأييداً للمرام وهذه هي سنة المحققين. وعلىٰ أي حال يقول الشيخ:

«وكثيراً ما تؤثر النفس في بدنٍ آخر كما تؤثر في بدنِ نفسها تأثير العين العائنة والوهم العامل. بل النفس إذا كانت قوية شريفة شبيهة بالمبادىء أطاعها العنصر الذي في العالم وانفعل عنها ووجد

---

(١) ترجمة نثرية لبيتي شعر بالفارسية.
(٢) اكتفينا بنقل نص كلام ابن سينا من كتاب الشفاء.

في العنصر ما يتصور فيها. وذلك لأن النفس الإنسانيّة سنبيّن أنَّها غير منطبعةٍ في المادّة الّتي لها لكنّها منصرفة الهمّة إليها، فإن كان هذا الضرب من التعلّق يجعل لها أن تحيل العنصر البدني عن مقتضى طبيعته فلا بدع أن تكون النّفس الشريفة القويّة جدّاً تجاوز بتأثيرها ما يختصّ بها من الأبدان إذا لم يكن انغماسها في الميل إلى ذلك البدن شديداً قويّاً، وكانت مع ذلك عالية في طبقتها قويّة في ملكتها جدّاً، فتكون هذه النفس تبرىء المرضى وتُمرض الأشرار، ويتبعها أن تهدم طبائع وأن تؤكّد طبائع وأن تستحيل لها العناصر فيصير غير النّار ناراً وغير الأرض أرضاً، وتحدث أيضاً بإرادتها أمطار وخِصب كما يحدث خسف ووباء كلّ بحسب الواجب العقلي. وبالجملة فإنّه يجوز أن يتبع إرادته وجود ما يتعلّق باستحالة العنصر في الأضداد فإنّ العنصر بطبعه يطيعه ويتكوّن فيه ما يتمثّل في إرادته، إذ العنصر بالجملة طوع للنّفس وطاعته لها أكثر من طاعته للأضداد المؤثّرة فيه. وهذه أيضاً من خواصّ القوى النبويّة. وقد كنّا ذكرنا خاصيّة قبل هذه تتعلّق بقواها المتخيّلة، وتلك خاصيّة تتعلّق بالقوى الحيوانيّة المدركة، وهذه خاصيّة تتعلّق بالقوة الحيوانيّة المحرّكة الإجماعيّة من نفس النّبيّ العظيم النّبوّة» (ص: ٣٤٥، ج١).

وقال ما يقرب من هذا المضمون في الفصل (٢٥) من النمط العاشر من كتاب «الإشارات» وهو الفصل الخاص بأسرار الآيات:

«ولعلّك تبلغك عن العارفين أخبار تكاد تأتي بقلب العادة فتبادر إلى التكذيب، وذلك مثل ما يقال: إنّ عارفاً استسقى للنّاس فسُقُوا، أو دعا عليهم فخسف بهم وزلزلوا أو هلكوا بوجه آخر، أو دعا لهم فصرف عنهم الوباء والموتان والسّيل والطّوفان، أو خشع لبعضهم سبع، أو لم ينفر عنهم طائر، أو مثل ذلك ممّا لا يؤخذ في طريق

الممتنع الصّريح، فتوقّف ولا تعجل فإنّ لأمثال هذه أسباباً في أسرار الطّبيعة وربّما يتأتّى لي أن أقتصّ (أقص ـ خ) بعضها عليك».

[آثار الاجتماع للدعاء والذكر]

وقد بينت الشريعة المحمدية ـ علىٰ صادعها الصلاة والسلام ـ صلاة الاستسقاء الجماعية وبكيفية معينة لها آثارٌ عميقةٌ في النفوس؛ ويمكن القول ـ وكأصل عام ـ: إن للنفوس المجتمعة المتحدة أثر نفسٍ إلهية كلية قوية.

ويمكن معرفة إحدىٰ فضائل وآثار صلاة الجماعة وحلقات الذكر والاجتماع للدعاء، من خلال معرفة حقيقة أن لكل إنسان صفةً أو أكثر من الصفات الحميدة والكمالات الإنسانية؛ والذين يجتمعون للصلاة والذكر والدعاء، يشكلون ـ مجتمعين ـ مثل الإنسان الكامل أو ظلّهُ ومثاله، فيكون اجتماعهم سبباً لنزول البركات الإلهية بمقدار نزولها لو فرضنا وجود الإنسان الكامل الذي هو واسطة نزول هذه البركات؛ مثلما يكون التصور والصور العلمية للعلل العالية مبادىء لصور الموجودات الدانية بإذن الله تعالىٰ.

[الدعاء والمعجزات من الأسباب]

إذن؛ يتضح أن تأثير الدعاء واللعن ووقوع المعجزات والكرامات والمنامات كلها معلولات لعللٍ وأسباب حتمية خاصة بها، والارتباط قائمٌ بين هذه العلل وآثارها، كما هو الحال مع سائر الآثار والمعلولات وعللها في سلسلةِ الأسباب والمسببات. وعلة العلل ومسبب الأسباب علىٰ الإطلاق هو الحق المطلق في مظاهره وشؤونه لأنه ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٣)، وهو: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ (يونس: ٣٤). ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ (هود: ١٢٣).

قال ابن خلكان في ترجمة الشيخ الرئيس ابن سينا: «وكان إذا أشكلت عليه مسألةٌ توضأ وقصد المسجد الجامع وصلّىٰ ودعا الله عزّ وجلّ أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها» (تأريخ ابن خلكان، ج١، ص:١٦٧، ط١).

ومن الجدير هنا التدبر في الآية الكريمة والحديث الشريف التاليين لكي تتضح كيفية تصرف النفوس القدسية - بإذن الله تعالىٰ - في مادة الكائنات:

قال عزّ من قائل: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الزخرف: ٥٥).

وفي الكافي والتوحيد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قالَ في هذه الآية: «إن الله تبارك وتعالىٰ لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه وسخطهم سخط نفسه» (تفسير الصافي).

وقد نظم العارف الرومي هذا المضمون في ديوان «المثنوي» فقال:

*لم يخز الله قوماً قط إلا بعد أن يتألم قلب ولي الله.

[تصرف الإلهيين التكويني بإذن الله]

إذن لا تعارض استجابة الدعاء سنن الله في خلقه، بل إن إحدىٰ علل وأسباب التحول والتغيير في عالم الطبيعة: هي النفس المتصفة بالصفات الربوبية والمتخلقة بالأخلاق الإلهية، فهي تتصرف في مادة الكائنات بإذن الله تعالىٰ. ويجب هنا الانتباه إلىٰ المعنىٰ الحقيقي لهذا الإذن الإلهي، فهو إذنٌ تكويني له حالة المعيّة القيوميّة

مع كل شيءٍ كما يشير لذلك قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «أنا بُدُّكم اللازم يا موسىٰ»، وقال سبحانه في القرآن الكريم لموسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه: ٤٦) وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (الرعد: ٣٨). ونقل سبحانه قولَ نبيه عيسىٰ ـ صلوات الله عليه ـ: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ (المائدة: ١١٠) فهو عزّ وجلّ نسب هذه المعاجز إلىٰ عيسىٰ عليه السلام لكنه قيّد وقوعها بقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾.

وقال سبحانه لنوح النجي ـ سلام الله عليه ـ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (هود: ٣٧، المؤمنون: ٢٧)، وقال عزّ من قائل أيضاً: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ (الأعراف: ١٦٠)، ويُلاحظ هنا أنه سبحانه استخدم ضمير المتكلم مع الغير، وفيه إشارةٌ دقيقة للغاية مفادها أن الفعل هو في الوقت نفسه فعل الله وفعل نوح وموسىٰ عليهما السلام، فلا يوجد اثنان وفاعلان مستقلان، بل إن فعل نوح وموسىٰ ليس في الواقع سوىٰ فعل الله. فافهم.

وينبغي هنا التدبر بعمق في استخدام الله سبحانه وتعالىٰ لضمير المتكلم وحده في الآيات المبينة لفعله عزّ وجلّ في مقام السلطنة والقدرة المطلقة، واستخدامه لضمير المتكلم مع الغير في الآيات المبينة لفعله عزّ وجلّ في المقام الذي يجعل للأسباب دوراً في الأمر.

● **تبصرة [تنبيهات بشأن سر استجابة الدعاء]**

ينبغي الانتباه في موضوع سر استجابة الدعاء إلىٰ الأمور التالية:

أ: إن النفس الإنسانية الناطقة موجودٌ مشترك بين الطبيعة والعقل، لذلك فالبحثُ بشأنها أيضاً مشترك بين العلم الطبيعي والعلم الإلهي، ولذلك تُبحثُ بعض مسائلها تحت عنوان كتاب النفس في مباحث الطبيعيات كما هو الحال مثلاً في النمط الثالث من «الإشارات» وكتاب النفس من مصنف «الشفاء» وغيرهما، فيما تُبحث بعض مسائلها ضمن مباحث الإلهيات كما هو الحال في النمط الأخير من كتاب «الإشارات» وبعض فصول الإلهيات من «الشفاء».

ب: والأمر الآخر هو: أن توحيد الحق سبحانه وتعالىٰ طبق الرؤية القرآنية الكاملة؛ أي التوحيد الإسلامي؛ هو موضوع مباحث كتب الحكمة المتعالية والصحف العرفانية؛ ومعناه هو: «إن الباري تعالىٰ كل الأشياء ومع كونه كل الأشياء لا يوجد فيه شيءٌ من الأشياء حتىٰ يكون هناك كثرة لا بالفعل ولا بالقوة». فافهم.

[معنى وحدة الوجود]

وهذا المعنىٰ هو المعبّر عنه في اصطلاحات القوم الغنية بتعبير «وحدة الوجود الشخصية» التي تعني أن الوجود مساوق للحق سبحانه أي ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٣). ومنطق إبراهيم الخليل ويوسف الصديق عليهما السلام هو: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ (الأنبياء: ٥٦)، ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ (يوسف: ١٠١) والمقصود هنا هو التنبيه إلىٰ مكانة معنى «الفطر والفاطر» في التوحيد الحقيقي:

كُنْ ـ كإبراهيم ويوسف ـ ذاكراً للحق تعالىٰ بصفةِ «الفاطر»
لكي تدرك حاكمية التوحيد الفطري بعيداً عن الدور والتسلسل الفكري
فلن يبقىٰ في قلبك ولا حبة خردل كنموذج لشبهات «ابن كمونة»
المائة[1]

ج: والأمر الآخر هو: إن النفس الإنسانية الناطقة ليست منطبعة في المادة، فهي مجردة عن المواد، وهي قوة واستعداد، ولذلك يمكن نسبة تعلقها إلىٰ غير بدنها كما هو حال الموجود المفارق العقلاني، فهو وجود أحدي الذات وليس له وضعٌ، ولذلك فإن نسبته إلىٰ جميع المادّيات متساوية.

وبدن الإنسان ـ بما هو بدن ـ هو المرتبة النازلة للنفس مطلقاً وهذا كم برهانيٌّ عقلي وعرفاني. وللتعلق عدة أشكال فلا يلزم أن يكون كل تعلقٍ للنفس بغيرها هو من سنخ تعلقها ببدنها، ولذلك فلا يلزم تصورُ أن كل ما تتعلق به يصيرُ بدناً لها.

فتدبر ـ لإدراك هذا الأمر ـ في المطلب السامي والدقيق الذي استنبطناه من حديث الإمام الصادق عليه السلام في تثليث العالم والإنسان ضمن الفقرة (٣٣) في الفصل الأول.

[بركات التحلي بالهمة العالية]

د: والأمر الآخر هو في توحّد النفس وتجمّعها وعزمها وهمتها وإرادتها، فإنها إذا تحررت من صبغة التعلق واكتسبت همة عالية؛ صدرت عنها آثارٌ عجيبة، ولذلك فإن أرواح الكاملين قادرة علىٰ الحضور في أماكن عدة في آنٍ واحدٍ، فتظهرُ في صور كثيرة دون

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات شعرية بالفارسية.

تقييد وانحصار ببعضها، فجميع هذه الصور تصدق عليها لأنها من منشآتها وأمثلتها القائمة بها علىٰ نحو قيام الفعل بالفاعل. يُراجع في هذا الباب الفصل الخامس من الفصول السابقة للتمهيد الإجمالي من كتاب «مصباح الأنس» لابن الفناري (ص:٣٧، ط١) حيث يقول: «الإنسان الكامل مظهرٌ له من حيث الاسم الجامع، ولذا كان له نصيبٌ من شأنِ مولاه...».

ويقول القيصري في آخر الفصل السادس من مقدمات شرحه لكتاب فصوص الحكم: «والنفوس الإنسانية الكاملة أيضاً يتشكلون بغير أشكالهم المحسوسة وهم في دار الدنيا لقوةِ انسلاخهم من أبدانهم، وبعد انتقالهم إلىٰ الآخرة لازدياد تلك القوة بارتفاع المانع البدني ولهم الدخول في العوالم الملكوتية كلها...» (ص:٣٣، ط١).

ويقول أيضاً في شرح الفص الإسحاقي: «العارف يخلقُ بهمتِهِ؛ أي بتوجهه وقصده بقوته الروحانية صوراً خارجةً عن الخيال موجودة في الأعيان الخارجية، كما هو مشهورٌ من البدلاء بأنهم يحضرون في آنٍ واحدٍ في أماكن مختلفة ويقضون حوائج عباد الله» (ص:١٩٧، ط١).

ويقول العارف الرومي ناظماً هذا المضمون في الدفتر الثاني من ديوانه «المثنوي»:

أسدُ الله يبادرون لتقديم العون كلما استغاث بهم المظلومون
فهم يسارعون ـ كرحمةٍ للحق سبحانه ـ إلىٰ حيثما سمعوا الاستغاثة تنطلق منه[١]

وللسيد العارف حيدر الآملي كلامٌ قيّمٌ في هذا الموضوع أورده

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات العارف الرومي.

في كتاب «أسرار الشريعة وأنوار الحقيقة» (ص: ١٦٠)، كما أن المولىٰ صدر المتألهين يقول في كتاب «مفاتيح الغيب»: «لولا اشتغال النفس بتدبير قواها الطبيعية وانفعالها عنها، لكان لها اقتدارٌ علىٰ إنشاء الأجرام العظيمة المقدار الكثيرة العدد، فضلاً عن التصرف فيها بالتدبير والتحريك...» (ص: ٦٢٧، ط١).

كما أن للفيض الكاشاني عدة مباحث قيمة بشأن هذا الموضوع في كتابه «حق اليقين» (ص: ٣١٢)، كما أن في الفص الشيثي من «فصوص الحكم» كلاماً قيماً في هذا الباب وتجد المزيد من التفصيل والشرح له في أواخر كتاب «مصباح الأنس» حيث عقد فصلاً في سر الدعاء وأحكامه (ص: ٢٥٨، ط١).

وهذه الأمور هي من أصول وأمهات المسائل في معرفة سر استجابة الدعاء، وبالتدبر فيها تعرفُ أن الإنسان مستعدٌ للحشر مع كل شيءٍ فهو ليس منقطعاً عن شيء، وهو يؤثر ويتأثر بالطبائع والنفوس والعقول بمقدار ارتباطه بها. وبهذا الارتباط والتعلق تتحقق استجابة الدعاء ـ للإنسان أو عليه ـ طبقاً لوحدة النظام الإنساني والكياني المطابق للسان حال النفوس واستعدادها وتحقق شروط الدعاء. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[1].

● تبصرة [الدعاء وإصلاح جوهر الإنسان]

ينبغي الانتباه ـ فيما يرتبط بأمر الدعاء ـ أن الداعي لا يرجع أبداً بأيدٍ خالية. وبيان الأحاديث الشريفة لهذه الحقيقة جميل للغاية. وأن أتمَّ فوائد الدعاء إصلاح جوهر النفس الناطقة ولسان الاستعداد،

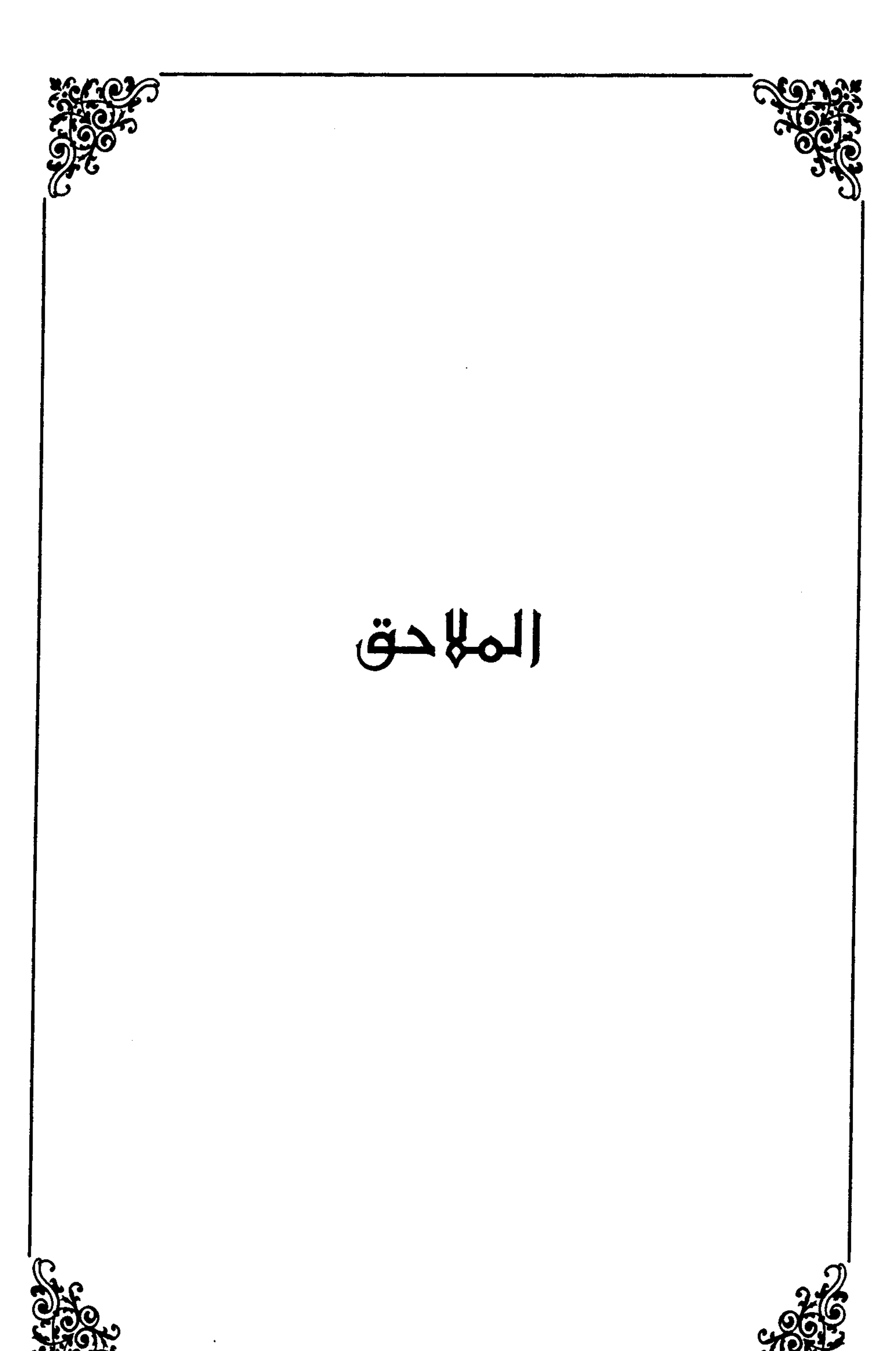
(١) سورة الأحزاب: ٤.

وهذه الثمرة يحصل عليها الإنسان من الدعاء ببركةِ التقرب إلىٰ الحق سبحانه. وخلاصة الكلام هي أن ما جلست للدعاء من أجل الحصول عليه هو خير لك مما تطلبه في دعائِكِ، فإذا لم تُقضَ حاجتك الخاصة فلا تحزن لأنها قد استبدلت بما هو خير منها: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠) فالدعاء مستجابٌ مطلقاً. أجل، وهو سبحانه يقول بعد عدة آيات من هذه الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[1].

والحمد لله رب العالمين علىٰ أن كان افتتاح هذه الرسالة بسم الله وختامها بالحمدُ لله، فتجلىٰ معنىٰ «نور علىٰ نور» علىٰ منصة الظهور. وكان الفراغ منها ليلة الأحد الثاني عشر من جمادى الآخر سنة ١٤٠٦هـ.ق الموافق (٣/ ١٢/ ١٣٦٤هـ.ش) في قم البلد الطيب ودار العلم.

حسن حسن زاده الآملي

(١) سورة غافر: ٦٥.



الملاحق



الملحق الأول[1]:

(الإنسان الكامل هو الاسم الإلهي الأعظم)

نورد هنا إشارات بشأن معرفة الله ذاتاً ووصفاً، وكذلك بشأن اسم الله الأعظم؛ فيما يرتبط بالموضوع الأول ينبغي البحث عن البراهين العقلية الدالة عليه في بدايات قسم الإلهيات من كتاب «الأسفار»، فقد خصص الفصول السبعة الأولىٰ من الموقف الأول منه للحديث عن التوحيد ومعرفة ذات الله عز وجل، أما الفصل الثامن فهو في توحيد الله ومعرفة وصفِهِ أي في الإلهية وحقيقة كونه الإله ورب العالمين، فقد عنون المولىٰ صدر المتألهين الفصل الأول بعنوان: «في إثبات وجوده والوصول إلىٰ معرفة ذاتِهِ»، وقال في مطلعِ الفصل الثامن إن موضوعه هو: «في أن واجب الوجود لا شريك له في الإلهية وأن إله العالم واحد» (الأسفار، ج٣، ص:١٩، ط١). كما شرح معنىٰ «الإلهية» في الفصل الرابع من الموقف الثاني من قسم الإلهيات (ص:٢٩). والمراد من هذا التفريع هو بيان كون ذات واجب الوجود هي وحدها إله العالمين وربهم. فافهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾[2].

---

(١) ترجمة للنكتة رقم (٤٧٩) من كتاب «ألف نكتة ونكتة» للشيخ الآملي (ص: ٢٣٩ ـ ٢٤٨، ط١).

(٢) سورة الفاتحة: ١ ـ ٢.

كما ينبغي البحث عن لب حقيقة الإلهية في البيان التفصيلي الذي عرضه صاحب كتاب «مصباح الأنس»، في شرح خاتمة التمهيد الإجمالي العام (ص:١١٩، الطبعة الحجرية)، وكذلك في شرح القيصري للفص النوحي من فصوص الحكم (ص:١٤٨، ط١)، وكذلك في شرحه للفص الإبراهيمي منها (ص:١٧٣)، وشرحه أيضاً للفص اليعقوبي (ص:٢١٧)، كما ينبغي - من أجل الفوز بهذا السر المكتوم - التدبر في حديث الإمام الصادق عليه السلام الذي يبدأ بقوله: «اسم الله غيره...» (الكافي، ج١، ص:٨٨).

نكتفي بهذه الإيماءات فيما يرتبط بالموضوع الأول، أما بالنسبة للموضوع الثاني - أي الاسم الأعظم - فنقولُ علىٰ نحو الإجمال والإيجاز:

اعلم أن الأسماء الإلهية اللفظية هي أسماء الأسماء وظلالها، والمهم هو الأسماء ذاتها التي هي حقائق نورية وأعيانٌ كونية. وقد قالوا للتمييز بين الظل وصاحب الظل: «للحروف صورٌ في عوالمها»؛ وقد تحدث عن ذلك الشيخ الأكبر محيي الدين العربي في كتاب «الدر المكنون والجوهر المصون في علم الحروف»، كما أن الشيخ مؤيد الدين الجندي قال في شرحه لفصوص الحكم: «اعلم أن الاسم الأعظم الذي اشتهر ذكره وطاب خبره ووجب طيه وحرم نشره، من عالم الحقائق والمعاني حقيقةً ومعنىٰ، ومن عالم الصور والألفاظ صورة ولفظاً...» (المصدر، ص:٧٠، ط١).

وكيف كان الحال: نقولُ في استكشاف هذا السر المقنع: إن سر أي شيء حقيقتُهُ اللطيفة المخفية أو حصته الوجودية كما ورد في بعض التعبيرات، وهذا السر أو الحصة الوجودية جدول ارتباط الشيء بالبحر اللامتناهي لمتن الأعيان:

أنت جدولٌ من بحر الجمال الوجودي
لكنك لا تعرف الجدول ولا البحر[١]

أما الآن؛ فاعلم أن «الإلهية» هي كظلٍ للذات المقدسة؛ وأمهات أسماء الإلهية هي: الحي والعالم والمريد والقادر، وهي بمنزلة ظلال لأسماء الذات، ولذلك فإن أعظم أسماء حقيقة الإلهية هو اسم «الله». والاسم الأعظم في مرتبة الأفعال هو اسم القادر والقدير، وهو بمنزلة الأم لباقي الأسماء في هذه المرتبة، لأن أسماء: الخالق والبارىء والمصور والقابض والباسط ونظائرها؛ هي بمنزلةِ السدنة لاسم القادر.

ولأعظمية الأسماء مرتبة أخرىٰ مختصة بالتعريف للحق سبحانه، بمعنىٰ أن الاسم الأتم من غيره في تعريف الحق سبحانه هو أعظم من الاسم الآخر، سواءٌ كان التعريف في مرتبةِ اللفظ والكتابة أو في المرتبة الخارجة عن إطار اللفظ التي يكون الاسم فيها عيناً خارجيةً واقعيةً، وهذه المرتبة ترتبط بالسر والحصة الوجودية التي تقدم ذكرها آنفاً، وفي مرتبة الواقع الخارجي هذه يختص الاسم الأعظم بمصداق الإنسان الكامل: «مَن رآني فقد رأىٰ الله»[٢].

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

(٢) بمعنىٰ أن الإنسان الكامل هو أكمل مظهر وجودي - في دائرة عالم الإمكان - لحقيقة الذات الإلهية المقدسة، ولذلك فإن معرفة الإنسان الكامل تمثل أكمل معرفة ممكنة للإنسان علىٰ أن معرفة كنه الذات الإلهية أمرٌ محال للمخلوق، روىٰ الشيخ الصدوق في كتاب علل الشرائع مسنداً عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «خرج الحسين بن علي عليهما السلام علىٰ أصحابه، فقال: أيها الناس، إن الله - عزّ وجلّ ذكره - ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه، فقال له رجل: يابن رسول الله، بأبي أنت وأمي، فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته» (بحار =

وعليه يكون وجود النبي الخاتم ﷺ أعظم أسماء الله، وكذلك حال الكلمات التامة والأسماء الإلهية الحسنىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الإسراء: ٥٥). وفي الكافي بإسناده عن معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1]، قال: «نحنُ والله الأسماءُ الحسنىٰ التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا» (الكافي، ج١، ص:١١١).

إذن لا يكون من نصيب أحد الاسم الأعظم الخاص بالنبي الخاتم ﷺ، ولكن اعلم؛ أنك تقتربُ من اسم الله الأعظم بمقدار تقربك العيني ـ لا الصوري ـ من حضرة النبي الخاتم ﷺ. ولما كان القرآن المجموع بين الدفتين هو الصورة الكتبية للنبي الخاتم ﷺ، لذا فإن هذا الاسم الكتبي هو أيضاً الاسم الأعظم كما عُرف بذلك.

ويتضح ـ من خلال هذه التعريفات التوضيحية ـ وجه الجمع بين مضامين الأحاديث الشريفة التي استخرجتها بشأن الاسم الأعظم؛ فتدبر ـ علىٰ ضوء الأصول المذكورة ـ في النصوص التالية:

أ: في مجمع البيان في تفسير سورة الإخلاص: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «رأيت الخضر في المنام قبل بدر بليلة فقلت

= الأنوار، ٢٣: ٨٠)، وروىٰ الشيخ الصدوق في كتاب الخصال أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «ثلاثُ أقسمُ أنهن حق: أنك والأوصياء من بعدك عرفاء لا يُعرف الله إلا بسبيل معرفتكم...» (البحار، ج ٢٣، ص:٩٩)، والأحاديث بهذا المضمون كثيرة. [المترجم].

(١) سورة الأعراف: ١٨٠.

له: علّمني شيئاً أنتصر به على الأعداء، فقال قل: يا هو يا من لا هو إلا هو، فلما أصبحت قصصت على رسول الله ﷺ فقال: يا علي علمت الاسم الأعظم؛ الحديث».

ب: وفي كتاب الحجة من الكافي (ج ١، ص:١٧٩) بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام: «إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً وإنما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة العين، ونحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً، وحرف واحد عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

ج: وفي الباب التاسع عشر من مصباح الشريعة: «سئل رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم، فقال: كل اسم من أسماء الله أعظم ففرّغ قلبك عن كل ما سواه وادعه بأي اسم شئت فليس في الحقيقة لله اسم دون اسم بل هو الله الواحد القهار».

وفي حديث المعراج الذي خاطب فيه الحق سبحانه نبيه الأكرم ﷺ بخطاب: يا أحمد، يا أحمد، أمرٌ بتعظيم الأسماء كلها، وكأن العارف البسطامي قد اقتنص هذه الكلمة السامية عندما أجاب مَن سأله عن الاسم الأعظم بقوله: أخبرني أنت بالاسم الأصغر لكي أخبرك بالاسم الأعظم، فبهت السائل، فقال له البسطامي: كل أسماء الله عظيمة.

د: وفي الدعاء العظيم المروي عن باقر علوم الأولين والآخرين عليه السلام لأسحار شهر الله المبارك وغيره، قال: «اللهم إني أسألك من أسمائِك بأكبرها وكل أسمائِك كبيرة».

هـ: وفي تفسير أبي الفتوح الرازي، أن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن الاسم الأعظم، فأمره عليه السلام أن يغمر الرجل رأسه في حوض ماء، وأمر بمنعه من إخراج رأسه رغم كثرة محاولاته إلىٰ أن صاح الرجل: «يا الله أغثني»، فقال الإمام: هذا هو الاسم الأعظم.

ومن هذا الحديث يتضح أن الاسم الأعظم مرتبط بحال الإنسان.

و: وفي البحار بإسناده عن أبي هاشم الجعفري قال: سمعتُ أبا محمد عليه السلام يقولُ: «بسم الله الرحمن الرحيم أقربُ إلىٰ اسم الله الأعظم من سواد العين إلىٰ بياضها» (المجلد ١٩، القسم الثاني، ص:١٨، طبعة الكمباني). وقريب منه ما نقله الفيض الكاشاني في تفسير أول سورة الفاتحة من تفسير الصافي عن العياشي عن الرضا عليه السلام قال: «إنها أقرب إلىٰ اسم الله الأعظم من ناظر العين إلىٰ بياضها»، ورواه في التهذيب عن الصادق عليه السلام.

ز: نقل العالم الأجل السيد علي خان الشيرازي المدني في كتاب «الكلم الطيب»، أن الاسم الأعظم لله تعالىٰ يفتتح بـ «الله» ويُختتم بـ «هو» وتكون حروفه بلا نقاط، ولا تتغير قراءتُهُ أُعرب أم لم يُعرب. والموجود علىٰ هذا النحو في القرآن المجيد هو في خمس سور: البقرة وآل عمران والنساء وطه والتغابن.

أقول: الموجود بهذا النحو في القرآن المجيد ستُ آيات في ست سور أحدها آية سورة النمل، وهذه الآيات هي:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إلىٰ آخر آية الكرسي (البقرة: ٢٥٥).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ...﴾ (آل عمران: ٢ ـ ٤).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ (النساء: ٨٧).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ (طه: ٨).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾ (النمل: ٢٦).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ (التغابن: ١٣).

بل ينبغي القولُ بأن الاسم الأعظم موجود بهذا النحو في سبع آيات، فالآية السابعة هي الآية (٦٢) من سورة غافر ـ أي سورة المؤمن ـ وهي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾. وهذه الآية الكريمة هي التي أشار إليها العالم الجليل محمود دهدار المعرف بالعياني في قوله:

اقرأ «حنة» في سورة الإنجيل، فهي حقاً هي هي!!
هي الموجودة في المصحف بعد ثلاث ميمات وسط سورة «حم»[(١)]

إذْ أن «حنة» هي أم السيدة مريم ـ سلام الله عليها ـ وهي «سبح» والإنجيل هو «م» في البُعد الأبجدي، وهو «غافر» القرآن لأن سورة المؤمن هي السورة الأربعون فيه، والبيت الثاني يبين المراد في البيت الأول، حيث يذكر الميمات الثلاث وما بعدها، وهي أعداد الأجزاء الجفرية ويسمونها أيضاً العدد الأبجدي الأوسط، كما ذكر ذلك الناظم نفسه في أول كتاب «جواهر الأسرار» وروىٰ عن الوصي عليه السلام أن «لط» التي بعد ميمات «غافر» الثلاث. فتدبرْ.

وقد قال أحد العاشقين بشأن هذه الآية الكريمة:

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

قلبي أسيرٌ في قبضة حبيب اسمه كعبة الخواص والعوام كافة
أبين لك علامة له إنْ كنت من أهل المعرفة:
ميمان وأربع كافات وثمان لامات[1]

ح: جميع مقامات المقالات الصادرة عن أهل بيت الوحي والمتحدثة في زُبر آل محمد ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ عن الاسم الأعظم، تشترك في «الحي القيوم».

ويقول صاحب الفتوحات المكية (ج٢، ص:١٣٣، طبعة بولاق) في جواب السؤال (١٣١) من الباب (٧٣): «ما رأس أسمائِهِ الذي استوجب منه جميع الأسماء؟ الجواب: الاسم الأعظم لا مدلول له سوىٰ عين الجمع وفيه الحي القيوم».

والحياة هي شرط كل اسم من أسماء الذات والصفات والأفعال، وأمهات الأسماء والصفات سبعٌ هي: الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، وهذه هي التي تسمىٰ بالأئمة السبعة للأسماء والصفات الإلهية، وإمام أئمة الصفات الحياة، وإمام أئمة الأسماء هو الحي وهو الدراك الفعال. فتبصر.

والاسم المفرد المُحلىٰ بالألف واللام يُفيد الاستغراق والشمول، والجملة الاسمية خاصة الخبر المُحلىٰ بالألف واللام وبالأخص إذا كان في البين كناية، هذه الجملة تفيدُ الحصر بوجهٍ أتم. فافهم.

والقيوم هو أعلىٰ من القائم؛ لأنه قائمٌ بذاتِهِ ومقيم لغيره كما تصرح بذلك الأدلة الكثيرة، وهذا يعني أن غيرَ القيوم قائمٌ به،

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

بمعنىٰ أنه متن وصلب الأعيان، والأعيان مظاهرُهُ وأطواره، «فهو سبحانه قيوم كل شيءٍ مما في السماوات والأرض الممسك لهما أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده»؛ وهذا هو المعنىٰ الدقيق الذي يقصده القيصري في بدايات مقدمات شرحه لفصوص الحكم: «فهو القيوم الثابت بذاتِهِ والمثبت لغيره». يقول المحقق الطوسي في تفسير ذلك في آخر النمط الرابع من شرحه لكتاب «الإشارات» للشيخ الرئيس:

«القيوم بريء عن العلائق أي عن جميع أنحاء التعلق بالغير، وعن العهد أي عن أنواع الأحكام والضعف والدرك وما يجري مجرى ذلك، يقال في الأمر عهدة أي لم يحكم بعد، وفي عقل فلان عهدة أي ضعف، وعهدته على فلان أي ما أدرك فيه من درك فإصلاحه عليه؛ وعن المواد أي الهيولى الأولى وما بعدها من المواد الوجودية؛ وعن المواد العقلية كالماهيات؛ وعن غيرها مما يجعل الذات بحال زائدة أي عن المشخصات والعوارض التي يصير المعقول بها محسوساً أو مخيلاً أو موهوماً».

ولكن هذا التفسير لا يخلو من مناقشة لأنه قائمٌ علىٰ مبنىٰ التوحيد عند المتأخرين من الفلاسفة المشائيين، وهذا المبنىٰ تنزيهي في عين التشبيه، سبحان الله عما يصفون. فتدبر.

وعلىٰ أي حال، فالمراد هو أن واجب الوجود بذاته حي قيوم، والحي إمام الأئمة والقيوم قائم بذاتِهِ مقيمٌ لما سواه، وعليه فإن الحي القيوم هو الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

ط: جاء في كتاب «عودان وحجارة» (ص: ٥٤)، وتحت عنوان (تقرير مهم): «قال أحد المشائخ: إن العلم بالاسم الأعظم إلهي.

وقد سمعتُ أن أحد أكابر أهل المعنىٰ تفكر بشأن الاسم الأعظم ثم قال: أعتقد أن الاسم الأعظم هو «اليقينُ» ولكن بشرطِ اليقين. واليقينُ نوعان: طريقي وموضوعي، وكذلك فعلي وانفعالي». فليُتدبر.

وقد عدَّ المرحوم الكفعمي في كتاب المصباح «اليقين» من أسماء الحق تعالىٰ، وقد ذكره في الحرف أو الفصل (٣٢) وهو في خواص الأسماء الحسنىٰ وشرحها ما يلي: «اللهم إني أسألك باسمك يا يقين، يا يد الواثقين، يا يقظان لا يسهو...». وعليه يتضح أن المنقولَ في كتاب «عودان وحجارة» عن أحد الأكابر يستند علىٰ هذا الأصل المتين.

وأما قوله: «ولكن بشرط اليقين»، فهو يستند إلىٰ كون «اليقين» نفسه غاية في الإحكام والمتانة، ومن الضروري هنا التدبر في هذين الحديثين الشريفين التاليين:

الحديث الأول: في الكافي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام (حديث ٣، باب حدوث العالم وإثبات المحدث من كتاب التوحيد ص:٦١، ج١) وساق الحديث إلى أن قال: «فقال ـ أي رجل من الزنادقة ـ قال: أوجدني كيف هو وأين هو؟ فقال: ويلك إن الذي ذهبت إليه غلط هو أين الأين بلا أين وكيف الكيف بلا كيف فلا يعرف بالكيفوفية ولا بأينونية ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء. فقال الرجل: فإذاً إنه لا شيء إذا لم يُدرك بحاسة من الحواس؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: ويلك لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقنا أنه ربنا بخلاف شيء من الأشياء».

إذن؛ فاعلم أن «اليقين» اسمٌ للحق تعالىٰ باعتبار خروجه عزّ وجلّ عن حد التشبيه، وكونه بخلاف شيءٍ من الأشياء.

الحديث الثاني: في الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الصبح فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفراً لونه قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال: إن لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان، ثم قال له: الزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر». (باب حقيقة الإيمان واليقين از كتاب الإيمان والكفر، ج٢، ص:٤٤).

ويُستفادُ من الحديث التالي لهذا الحديث الشريف، أن الشاب المذكور هنا هو حارثة بن مالك الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث: «وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون في الجنة، وكأني أسمع عواء أهل النار في النار». وقد نسب العارف الرومي في ديوان «المثنوي» هذه الحادثة إلىٰ زيد بن حارثة، وذلك ضمن أبيات له في أواخر الدفتر الأول من ديوانه حيث قال [ما ترجمته النثرية]:

قال النبي ذات صباح لزيد: كيف أصبحت يا رفيق الصفا؟

وقد اعتبروا في علم الحروف أن الاسم الأعظم هو بعض الحروف، ويُنقل عن الشيخ البهائي قولَهُ [بما ترجمته النثرية]:

أخبرك ـ يا طالب الأسرار والرموز الغامضات ـ
باسمٍ من الأسماء العظمىٰ فاصغ جيداً

إلىٰ آخر أبياته التي تشيرُ إلىٰ (أوتاد بروح)، كما أن لـ (أجمز ط) وأزواجها أسرارٌ مفعمة بالفتوحات في جداول الأوفاق، وهي تُعَدُّ في عداد السر المقنع. وقد استوفينا البحث في هذا الشأن في كتابنا «الدروس الأوفاقية في علم الأوفاق»، فهو كتاب وافٍ وموفٍ في هذا الباب.

كما جرىٰ الكلام بشأن الاسم الأعظم في (ادذ رزولا) في الباب (٧٣) من الفتوحات المكية، في أجوبة الأسئلة (١٣١ ـ ١٤٣) من أسئلة الحكيم محمد بن علي الترمذي التي يبلغ عددها (١٥٥) سؤالاً.

وتنتهي الأسماء الإلهية بـ «هو» تارةً وأخرىٰ بـ «ذي الجلال والإكرام»، وثالثة بـ «الله» و«تبارك وتعالىٰ»، ورابعة بـ «هو الأول والآخر والظاهر والباطن». فالأول في حديث الخضر المشار إليه، والثاني في سورة الرحمٰن، والثالث في سورة الحديد، وتارة تنتهي بأئمةِ الأسماء السبعة: الحي، العالم، المريد، القادر، السميع، البصير، والمتكلم. وتارة بالتسعة والتسعين اسماً، فقد روي من طرق الفريقين وبمضامين عدة: «أن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»، وتارة تنتهي إلى ألف اسم واسم، كما في دعاء الجوشن الكبير وغيره، وتارة إلىٰ أربعة آلاف اسم،

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله أربعة آلاف اسم...» (بحار الأنوار، ج٢، ص:١٦٤ طبعة الكمباني). وتارة تنتهي إلىٰ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١).

يُراجع في هذا البحث باب «ما أعطي الأئمة عليهم السلام من اسم الله الأعظم» في الكافي (ج ١، ص:١٧٩)، وكذلك الجزء الثاني من المجلد ١٩ من بحار الأنوار (ص:١٨، ط١)، ففيها أحاديث شريفة صادرة بشأن الاسم الأعظم من معدن الولاية وكلها نور. كما يُوجد تحقيق دقيق وعميق وقيم حقاً بشأن الاسم الأعظم في كتاب «مصباح الأنس» في المقام الثالث من الفصل الثاني من التمهيد الإجمالي (ص:١١٥ ـ ١١٧)، ولعل لديواني «دفتر القلب» نصيباً من نفحات هذا المقام. والله سبحانه ولي التوفيق.

الملحق الثاني[1]:

(آثار الإكثار والمداومة على الذكر والدعاء)

يقولُ المولىٰ العارف الشيخ عبد الرزاق الكاشاني في شرحه لمنازل السائرين: «وقد جرب القوم أن الإكثار من ذكر: يا حي يا قيوم يا مَن لا إله إلّا أنت يوجب حياة العقل» (المصدر، ص: ٣٥ ـ ٣٦، الطبعة الحجرية الأولىٰ).

إن للإكثار من الذكر والعمل تأثيراً أساسياً في الحصول علىٰ النتيجة المطلوبة، وهذا الإكثار يستلزم التحلي بالهمة العالية والاستقامة والثبات. ولا يكفي مجرد الإقبال والتوجه وحده، لأن من الممكن أن يصير أصحاب الإقبال والتوجه المجرد من أهل القيل والقال؛ أما الذين يبلغون مقام شهود وجه السعادة ويعرجون إلىٰ جنة القرب والمكاشفات الإنسانية فهم أصحاب الهمة العالية.

ولا يثمر أي عملٍ أو ذكر آثاراً تُذكر ما لم يواظب علىٰ الالتزام به أربعين مرة، وقد صرحت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بخصوصية «الأربعينيات» في ظهور فعلية ما في القوة والاستعداد وحصول الملكة، كما رويت في المجاميع الحديثية

---

(١) ترجمة للنكتة (٩١٣) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»، (ص: ٧٥٢، ج٢).

روايات عن أهل بيت العصمة والوحي ﷺ تأمر بالاستمرار علىٰ العمل سنةً كاملة لكي تُدرك به ليلة القدر، ففي باب: «استواء العمل والمداومة عليه» من أصول الكافي (ج ٢، ص:٦٧) عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«إذا كان الرجلُ علىٰ عملٍ فليدم عليه سنة ثم يتحولُ عنه إن شاء إلىٰ غيره، وذلك أن ليلة القدر يكون فيها في عامه ذلك ما شاء الله أن يكون».

وعنه عليه السلام قال: «أحب الأعمال إلىٰ الله عزّ وجلّ ما داوم عليه العبد وإن قلَّ».

وعنه عليه السلام قال: «إياك أن تفرض علىٰ نفسك فريضة فتفارقها اثني عشر هلالاً».

وعنه عليه السلام قال: «كان علي بن الحسين ـ صلوات الله عليهما ـ يقولُ: إني لأحب أن أداوم علىٰ العمل وإن قلَّ».

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من شيءٍ أحب إلىٰ الله عزّ وجلّ من عملٍ يُداوم عليه وإن قلَّ».

الملحق الثالث[1]:

(آثار آية السخرة في الحصول على اليقين)

آية السخرة ـ على ما في مجمع البحرين وغيره ـ هي قوله تعالى في سورة الأعراف (٥٥ ـ ٥٧):

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2].

وكانت معروفة بهذا الاسم على ألسنة خواص الصحابة بل وغير الخواص منهم أيضاً. وهي متألقة في الجوامع الحديثية تألق الكوكب الدري، وهي منهج عملي ثابت في برامج عمل السالكين، وتلاوتها سبعين مرة توجب للنفوس متعة صفاء القلب وطمأنينة النفس ونفي الخواطر وإزالة الشكوك والوساوس، وهذا أمرٌ يقيني فقد أمرَ به الوصي عليه السلام؛ ففي:

---

(١) ترجمة للنكتة (٩٧٨) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»، (ص: ٧٩٩ ـ ٨٠٢) من الجزء الثاني.

(٢) سورة الأعراف: ٥٤، وقد اعتبر المؤلف آية السخرة مشكلة من الآيات الثلاث (٥٤ ـ ٥٦) من سورة الأعراف ترجيحاً لقول الشيخ البهائي الذي سيذكره لاحقاً، وقد رقم هذه الآيات (٥٥ ـ ٥٧) بلحاظ عدّ بسملة سورة الأعراف الآية الأولى فيها كما أشرنا لذلك في المقدمة. [المترجم].

الحديث الأول من باب ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة من كتاب الحجة من أصول الكافي (ج١، ص:٢٧٩) بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: «بعث طلحة والزبير رجلاً من عبد القيس يقال له خداش إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه وقالا له: إنا نبعثك إلى رجل طالما كنا نعرفه وأهل بيته بالسحر والكهانة وأنت أوثق من بحضرتنا من أنفسنا من أن تمتنع من ذلك منه وأن تحاجه لنا حتى تقفه على أمر معلوم - إلى أن قال:

فلما أتى خداش أمير المؤمنين عليه السلام... قال فأنشدك بالله الذي هو أقرب إليك من نفسك الحائل بينك وبين قلبك الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أتقدم إليك الزبير بما عليك؟ قال: اللهم نعم، قال: لو كنت بعد ما سألتك ما ارتدّ إليك طرفك، فأنشدك الله هل علمك كلاماً تقوله إذا أتيتني؟ قال: اللهم نعم، قال علي عليه السلام: آية السخرة؟ قال: نعم، قال: فاقرأها، وجعل علي عليه السلام يكررها ويرددها ويفتح عليه إذا أخطأ حتى إذا قرأها سبعين مرة. قال الرجل: ما يرى أمير المؤمنين عليه السلام أمره بترددها سبعين مرة، ثم قال له: أتجد قلبك اطمأن؟ قال: أي والذي نفسي بيده. الحديث». وقال المولىٰ صالح المازندراني في شرح أصول الكافي (ج٦، ص:٢٥٧، ط١) وفيه دلالة على أن قراءة هذه الآية سبعين مرة توجب صفاء القلب واطمئنانه ورفع شكه ووساوسه». وقال المجلسي في مرآة العقول (ج ١، ص:٢٥٢، ط١): «وهذا يدل على أن قراءة هذه الآية سبعين مرة توجب رفع شر شياطين الجن والإنس واطمئنان النفس على الإسلام والإيمان وتنور القلب باليقين».

وفي الحديث ١٦ من باب الدعاء عند النوم والانتباه من أصول

الكافي (ج٢، ص: ٣٩٢) قال أبو عبد الله عليه السلام: «من قرأ عند منامه آية الكرسي ثلاث مرات، والآية التي في آل عمران ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وآية السخرة وآية السجدة، وكل به شيطانان يحفظانه من مردة الشياطين، شاؤوا أو أبوا، ومعهما من الله ثلاثون ملكاً يحمدون الله عزّ وجلّ ويسبحونه ويهللونه ويكبرونه ويستغفرون له إلى أن ينتبه ذلك العبد من نومه وثواب ذلك له».

وقال العلّامة المجلسي في مرآة العقول في شرح هذا الحديث الشريف: «آية السخرة في الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقيل إلىٰ ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، كما ذكره الشيخ البهائي ـ رحمه الله ـ». (مرآة العقول، ج٢، ص: ٤٩٥، ط١).

أقول: إن آية السخرة هي من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾إلىٰ قوله سبحانه: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقد نص علىٰ ذلك إضافة إلىٰ الشيخ البهائي المرحوم السبزواري في كتاب جامع الدعوات (ص: ١٩).

الملحق الرابع[1]:

(تلاوة الذكر اليونسي والمسبحات الست)

قال الأستاذ المرحوم العلّامة الطباطبائي: كان أول منهج عملي يأمر به المرحوم القاضي (يعني أستاذه العارف العظيم والسالك المستقيم آية الله الحاج السيد علي القاضي التبريزي) هو الذكر اليونسي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، فيأمر بتلاوته في وقت معين وعدد معين (ت مرة) وفي حال السجود ولمدة سنة كاملة. كما كان يأمر بتلاوة سور المسبحات الست كل ليلة، ولكن المذكور في الحديث المسبحات الخمس بغير سورة الأعلىٰ، ولذلك عرضنا هذا الحديث علىٰ المرحوم القاضي، لكنه رغم ذلك ظلَّ مصرّاً ـ بقوة ـ علىٰ تلاوة المسبحات الست، فقد كان عارفاً بأمور أخذ من الأساتذة الذين تناقلوها رواية متسلسلة.

أقول: روي في أصول الكافي، في باب فضل القرآن (ج ٢، ص: ٤٥٤) مسنداً عن جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه‌السلام يقول: «مَن قرأ المسبحات كلها قبل أن ينام لم يمت حتىٰ يدرك القائم، وإن مات كان في جوار محمد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله». وقال المرحوم الفيض الكاشاني في الوافي (ج

---

(١) ترجمة للنكتة (٧٥٤) من كتاب «ألف نكتة ونكتة».

٥، ص: ٢٦٩) في شرح هذا الحديث: «المسبحات من السور ما افتتح بسبَّح أو يسبح» وقال المرحوم المجلسي في مرآة العقول (ج٢، ص: ٥٣٣): «قال في مجمع البحار: وفي الحديث: يقرأ المسبحات؛ أي سور في أولها: سبّح لله أو سبحان أو سبح اسم ربّك الأعلى. قال: وقال في التهذيب: المسبحات من السور ما افتتح بسبح أو يسبح».

وأول المسبحات الست هي سورة الحديد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وبعدها الحشر ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وبعدها الصف ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وبعدها الجمعة ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، وبعدها التغابن ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، وبعدها الأعلىٰ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١)﴾. أما طبقاً لقول صاحبي التهذيب والوافي فإن المسبحات الخمس، أما طبقاً لما في مجمع البحار، فالمسبحات هي: الحديد والحشر والصف والأعلىٰ والإسراء، إلا أن نقولَ بأن فعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ قد سقط في الطبع أو من قلم الناسخ وفي هذه الحالة تصبحُ المسبحات سبعاً. ولكن حديث جابر المذكور رواه صاحبا تفسيري المجمع والصافي في تفسير سورة الحديد، الأمر الذي يشير إلىٰ أنهما يعتقدان بأن سورة الحديد وليس سورة الإسراء هي أولىٰ سور المسبحات.

وفي تفسير الدر المنثور نقل السيوطي حديث عرباض بن سارية وفيه: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأُ المسبحات قبل أن يرقد، وقال ﷺ: إن فيها آية أفضل من ألف آية»، ورویٰ أيضاً عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتىٰ يقرأَ المسبحات، وكان يقول: إن فيهن آية هي أفضلُ من ألف آية».

وقد نقل المولىٰ فتح الله في تفسير أول سورة الحديد من تفسيره «منهج الصادقين» حديث عرباض بن سارية المتقدم بصيغة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأُ قبل أن يرقد المسبحات الخمس وهي: الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن.

الملحق الخامس[1]:

(في المراتب الخمس للحمد والحضرات والنون والعرش...)

يقولُ ابن الفناري في خطبةِ كتابه «مصباح الأنس»: « . . .فالحمدُ بالألسنة الخمسة لهذه الحقائق؛ إلهيةً فاعلة كانت أو كونية قابلة؛ يكون متحداً بك في ذاتك».

وقد بيَّن القيصري في شرح الفص اليونسي من شرحه لفصوص الحكم (ص: ٣٨٢، ط١) حيث قال: «واعلم أن حقيقة الذكر عبارة عن تجليه لذاته بذاته من حيث الاسم المتكلم إظهاراً للصفات الكمالية ووصفاً بالنعوت الجلالية والجمالية في مقامي جمعه وتفصيله، كما شهد لذاته بذاته في قوله شهد الله أنه لا إله إلّا هو. وهذه الحقيقة لها مراتب: أعلاها وأولها ما في مقام الجمع من ذكر الحق نفسه باسمه المتكلم بالحمد والثناء على نفسه. وثانيها ذكر الملائكة المقربين وهو تحميد الأرواح وتسبيحها لربها. وثالثها ذكر الملائكة السماوية والنفوس الناطقة المجردة. ورابعها ذكر الملائكة

---

(١) النكتة (٦٦٣) من كتاب «ألف نكتة ونكتة»، (ص: ٤٥٤ ـ ٤٥٦) من الجزء الأول.

الأرضية والنفوس المنطبعة مع طبقاتها. وخامسها ذكر الأبدان وما فيها من الأعضاء وكل ذاكر لربه بلسان يختص به».

وقالوا: إن الحضرات هي خمسٌ أيضاً مثلما أن مراتب الحمد خمسٌ: «الحضرات الخمس؛ هي: حضرة الغيب المطلق، ومقابلتها حضرة الشهادة المطلقة، وحضرة الغيب المضاف المنقسم إلى قسمين أحدهما أقرب من الغيب المطلق، وثانيهما أقرب من الشهادة، والخامسة الحضرة الجامعة للأربعة المذكورة وكل واحدة منها عالم خاص (ص:٢٨ و١٩٧ شرح القيصري لفصوص الحكم، ط١، وص:١٠٣ وص:١١٥، مصباح الأنس، ط١).

وقسموا النون أيضاً إلىٰ خمس مراتب: قال مؤيد الدين الجندي في شرح الفصوص «للنون الذي هو مجتمع مداد المواد الحرفية النفسية الرحمانية من كونه أم الكتاب خمس مراتب الأولى التعين الأول إلخ» (ص:١٣٣ مصباح الأنس، ط١).

وكذلك قسموا النكاحات إلىٰ خمسة (واعلم أن أول النكاحات هو الاجتماع الاسمائي لإيجاد عالم الأرواح وصورها في النفس الرحماني المسماة بالطبيعة الكلية. إلخ (شرح القيصري للفص المحمدي من فصوص الحكم، ص:٤٧٩، ط١، وص:٦٧٩، شرح الجندي لفصوص الحكم).

كما قسموا العرش إلىٰ خمسة أنواع (كتاب «عقلة المستوفز»، ص:٥٢)، وقسموا القيامة إلىٰ خمسة أنواع: «وللساعة أنواع خمسة بعدد الحضرات الخمس...» (آخر الفصل التاسع من فصول مقدمات شرح القيصري لفصوص الحكم، ص:٤١، ط١)، كما قسموا القلب إلىٰ خمسة أنواع: «القلب النفسي، القلب الحقيقي

المتولد من مشيمة جمعية النفس، القلب المتولد من مشيمة الروح، أي القلب القابل للتجلي الوجودي الباطني، القلب الجامع المسخر بين الحضرتين، حضرة الاسم الظاهر، وحضرة الاسم الباطن، والقلب الأحدي الجمعي».

وتجد تفصيل الحديث عن أنواع القلب في كتاب «مصباح الأنس» (ص: ٢١ ـ ٢٦، ط١).

الملحق السادس[1]:

(في معنىٰ حديث:
من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة)

«مَن قال: لا إله إلّا الله دخل الجنة».

أمعنوا النظر في هذه الطائفة من الأحاديث الشريفة المروية في فضيلة كلمة التوحيد المباركة لكي تعرف مَن الذي يدخل الجنة من قائلي «لا إله إلّا الله» وما هي مميزاته. ونحن هنا ننقل هذه الأحاديث من الباب الأول من كتاب التوحيد للشيخ الصدوق من النسخة المصححة من قبل المولىٰ خليل القزويني:

أ: بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قلت ولا قال القائلون قبلي مثل لا إله إلّا الله».

ب: وبإسناده عن السكوني عن أبي عبد الله عن آبائهم عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «خير العبادة قول لا إله إلّا الله».

ج: وبإسناده عن عبيد بن زرارة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: قول لا إله إلّا الله ثمن الجنة.

---

(١) النكتة (٦٣٣) من كتاب «ألف نكتة ونكتة».

د: وبإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله تبارك وتعالىٰ حرم أجساد الموحدين على النار.

هـ: وبإسناده عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «الموجبتان من مات يشهد أن لا إله إلّا الله دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله دخل النار».

و: وبإسناده عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «كل جبار عنيد من أبى أن يقول لا إله إلّا الله».

ز: وبإسناده عن حرب بن زيد بن خالد الجهني قال: أشهد على أبي زيد بن خالد لسمعته يقول أرسلني رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لي: «بشر الناس أنه من قال لا إله إلّا الله وحده لا شريك له فله الجنة».

ح: وبإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقول الله جل جلاله لا إله إلّا الله حصني فمن دخله أمن من عذابي».

ط: وبإسناده عنه عليه السلام قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «قال الله جل جلاله: إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني، من جاء منكم بشهادة أن لا إله إلّا الله بالإخلاص دخل في حصني، ومن دخل في حصني أمن من عذابي».

ي: وبإسناده عن ثامن الحجج عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن لا إله إلّا الله كلمة عظيمة كريمة على الله عزّ وجلّ من قالها مخلصاً استوجب الجنة، ومن قالها كاذباً عصمت ماله ودمه وكان مصيره إلى النار».

يا: وبإسناده عن محمد بن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قال لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنة وإخلاصه أن تحجزه لا إله

إلّا الله عما حرم الله عز وجل. ورواه أيضاً بإسناده عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ، بعينه.

يب: وبإسناده عن إسحق بن راهويه قال: لما وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام بنيسابور وأراد أن يخرج منها إلى المأمون اجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا له: يابن رسول الله ترحل عنا ولا تحدثنا بحديث فنستفيده منك؟ وكان قد قعد في العمارية، فاطلع رأسه وقال: سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي بن أبي طالب يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سمعت جبرائيل يقول: سمعت الله جل جلاله يقول: لا إله إلّا الله حصني فمن دخل حصني أمِن من عذابي. قال فلما مرت الراحلة نادانا بشروطها وأنا من شروطها».

وعلق الشيخ الصدوق علىٰ الحديث بالقول: «قال مصنف هذا الكتاب: من شروطها الإقرار للرضا عليه السلام بأنه إمام من قبل الله عزّ وجلّ على العباد مفترض الطاعة عليهم».

ويمكن الجمع بين هذه الأحاديث الشريفة استناداً إلىٰ تعدد مراتب الجنة ودرجاتها؛ هذا هو الوجه الأول أما الوجه الثاني فهو أن يكون المقصود هو توفر الكمال في هذا القول. فتبصر.

وقد سجلت في ديواني البيت التالي:

زرعتُ في مزرعة القلب بذرة التوحيد لا سواها
وكل ما أرجوه هو من هذه البذرة لا من سواها[1]

---

(١) ترجمة نثرية لبيت بالفارسية.

الملحق السابع[1]:

(العبودية لله والقرب منه)

قال الحق سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[2]، ولم يقل: أسرىٰ بمحمدٍ ﷺ لأن هذا المقام هو «لعبده»: «وأشهد أن محمداً عبدُهُ ورسوله»؛ وعليه؛ فإنك إذا صرت عبداً لله: تقتربُ ـ بمقدار عبوديتك ـ من ذلك المقام المنيع، ولكن تمني بلوغ المقام المحمدي نفسه هو من مصاديق التعدي علىٰ الحدود المنهي عنه في قوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الأعراف: ٥٥)، فقد نقل في تفسير مجمع البيان في تفسير الآية: «قيل هو أن يطلب منازل الأنبياء»[3]، وما أحسن قول الشيخ الأكبر في الفص العزيزي من فصوص الحكم حيث قال: «وهذا الحديث قصمَ ظهور أولياء الله لأنه يتضمن انقطاع ذوق العبودية الكاملة التامة»، (ص:٣٠٨، ط١)، ولكن:

صِرْ أبا ذر وتوجّه للمصطفىٰ
ففيضُ الحق سبحانه ليس خاصاً بأبي ذر[4]

---

(١) ترجمة النكتة (٤٨٣) من كتاب «ألف نكتة ونكتة» للمؤلف.
(٢) سورة الإسراء: ١.
(٣) مجمع البيان ٢: ٤٢٩.
(٤) ترجمات نثرية لأبيات بالفارسية

وتقرأُ في ديوان «كلشن راز»:

اتبعْ سيد الكائنات في إسرائِهِ وشاهد الآيات الكبرىٰ
يعطيك الحق سبحانه كل ما تريد
ويريك جميع الأشياء كما هي
استجدِّ جذبة ملوكية
تعطيك - في لحظة - جبلاً بقشةٍ[1]

يقول الشيخ الرئيس في الفصل الخامس من النمط التاسع من كتاب «الإشارات»: «إشارة: العارفُ يريدُ الحقَ الأولَ لا لشيء غيره ولا يؤثر شيئاً علىٰ عرفانه...»، وقد علق الفخر الرازي في شرح الإشارات علىٰ ذلك بالقول: «لقد روي في الأخبار أنه عليه السلام لما عُرج به ووصل إلىٰ ما وصل إليه من المقامات السنية والدرجات الرفيعة، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه وقال: بِمَ أُشرفك؟ فقال عليه السلام: أريدُ أن تشرفني بأن تنسبني إلىٰ نفسك. فنزل ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾».

والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة في بيان مقام العبد والعبودية كثيرةٌ. ومن الضروري التمييز بين النبوة التشريعية والنبوة الإنبائية، وكذلك بين الأحكام التكوينية والأحكام التشريعية، فبذلك يسهل عليك وعلىٰ عباد الله فهم كلام الشيخ بشأن حقيقة الإسراء الذي قاله في الباب (٣٦٠) من كتاب الفتوحات المكية. والله تعالىٰ ولي التوفيق.

---

(١) ترجمات نثرية لأبيات بالفارسية.

الملحق الثامن[1]:

(«جنتي» أعلىٰ مراتب الجنان)

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ (آخر سورة الفجر).

هذه الجنة مضافة إلىٰ اسم الجلالة مثل: كتاب الله وشهر الله وبيت الله وعبد الله، بل مثل عبده؛ إذْ أنّ لفظ الجلالة اسمٌ. روىٰ الكليني في باب حدوث الأسماء من أصول الكافي (ج ١، ص:٨٧) عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «... فهذه الأسماء التي ظهرت، فالظاهر هو الله وتبارك وتعالىٰ» فقد عطف بواو العطف بين «الله» و«تبارك». فهذه الجنة هي الموصوفة بوصف «ما في الجنة إلّا الله»، مثلما قيل «ما في الجبة إلّا الله»، يقول الشيخ ابن عربي في آخر الباب (٣٢١) من الفتوحات المكية (ج ٣، ص:٩٠، طبعة بولاق) في توضيح الكلمة الثانية «قال بعضُ الرجال: ما في الجبة إلّا الله، يُريدُ ما في الوجودِ إلّا الله».

وتجد في الدرس (٢١) من دروس اتحاد العاقل والمعقول العبارة التالية: «في بعض الأخبار أن لله جنة ليس فيها حورٌ ولا

---

(١) ترجمة للنكتة (٧٠٧) والنكتة (٩٢١) من كتاب «ألف نكتة ونكتة» للمؤلف.

قصور ولا لبن وعسل، وثمار الجنة المناسبة لهم (هي) الفواكه من العلوم والأسرار دون المألوف من فواكه الدنيا».

واعلم؛ أن السفينة تسير بسكينةٍ إذا كانت محملّةً بالمثقلات، أما إذا كانت خالية فهي تضطرب عند تلاطم الأمواج واشتداد الريح. وهكذا حال سفينة النفس، تكون نفساً مطمئنة إذا كانت محملة بالمثقلات من حقائق العلوم والأسرار، وإلا فهي مضطربة قلقة كما يشير لذلك قول الوصي عليه السلام: «أتباع كل ناعقٍ يميلون مع كل ريح».

يقول صاحب الفصوص في الفص الإسماعيلي: «وادخلي جنتي التي هي سري وليست جنتي سواك، فأنت تسترني بذاتك، فلا أُعرفُ إلا بك كما أنك لا تكونُ إلا بي» (المصدر ص: ٢٠٥، ط١).

ويقول الشارح القيصري في بيان حقيقة الجنة وأنواعها: «اعلم أن الجنة في اللغة عبارة عن أرض فيها أشجار كثيرة بحيث تستر الأرض بظلها مأخوذ من الجن وهو الستر. فالجنة من الجن الذي هو الستر وفي اصطلاح علماء الظاهر عبارة عن مقامات نزهة ومواطن محبوبة من الدار الآخرة وهي جنة الأعمال والأفعال. وللعارفين جنات أخر غيرها وهي جنات الصفات أعني الاتصاف بصفات أرباب الكمال والتخلق بأخلاق ذي الجلال وهي على مراتب كما أن الأول على مراتب، ولهم جنات الذات وهي ظهور رب كل منهم عليهم واستتارهم عنده في أربابهم.

هذه الجنات الثلاث للعبد، وللحق أيضاً جنات ثلاث تقابلها لذلك قال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾، فأضاف إلى نفسه: فأول

جناته الأعيان الثابتة لأن» بها يستتر فيشاهد ذاته بذاته من وراء أستار الأعيان الثابتة، والثانية استتاره في الأرواح بحيث لا يطلع عليه ملك مقرب ولا غيره، والثالثة استتاره في عالم الشهادة بالأكوان ليشاهد عوالمه من وراء الأستار بحيث لا يشعر عليه الأغيار وهذا بحسب استتار ذاته في الذوات في عوالمها، وكذلك استتاره بحسب الصفات والأفعال في صفاتها وأفعالها. فالعارف إذا قيل له ادخل جنتي لم يفهم منه إلا ادخل ذاتك وعينك وحقيقتك لتجدني فيها وتشاهدني بها لأن مطلوبه الحق فقط بخلاف غير العارف فإن جنته ما فيه حظوظ نفسه من المشارب والمآكل والمناكح وما يتعلق بها».

وقوله: «لا يطلعُ عليه ملك مقرب ولا غيره» يعني: لا يطلع عليه بالكنه والتمام. ومفادُ هذا البحث التحقيقي الدقيق هو ما أكدت عليه ـ أنا أقل العباد ـ من قولي: أنا أو أنت جدولٌ من بحر الوجود فعلينا أن نحصل علىٰ ما في هذا الجدول.

الملحق التاسع[1]:

(مراتب الطهارة وآثار كل منها)

نقولُ بشأن مراتب الطهارة:

إن طهارة الأرواح والقلوب سبب لازدياد الرزق المعنوي وتلقي العطايا الإلهية علىٰ ما ينبغي، ومجيء الرزق من حيث لا يُحتسب. أما الطهارة الظاهرية فهي ـ وبحكم تبعية عالم الصور لعالم الأرواح في الوجود والأحكام ـ تستلزم ازدياد الرزق الحسي، لذا ينبغي اكتساب الطهارة الظاهرية وكذلك الطهارة الباطنية.

والطهارة الظاهرية هي: طهارة البدن من الدنس والقاذورات، وطهارة الحواس من الخوض في الإدراكات التي لا حاجة إليها[2]. ولا يخفىٰ لزوم طهارة الأعضاء من الخوض في التصرفات المنافية لحدِّ الاعتدال، فهذا أمرٌ ثابت بحكم الشرع والعقل. وطهارة اللسان بالخصوص نوعان: الصمتُ عما لا يعني، ورعاية العدل فيما يصدر عنه، فلا يجوز النقص ولا الزيادة في بيان الواقع.

---

(١) رسالة «الوحدة في رؤية العارف والحكيم»، (ص: ٤١ ـ ٤٦).

(٢) ومنها الخوض في العلوم والمعارف التي لا تنفع الإنسان في سيره التكاملي، فهي ليست مما يقربه إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ؛ ومنها استهلاك الحواس في الأفعال التي لا تنصب في إطار الغاية من خلق الإنسان. [المترجم].

كما أن الطهارة الظاهرية في مراتب قوىٰ النفس العملية هي مرتبة التصفية والتجلية، بمعنىٰ مراقبة هذه القوىٰ والأعضاء بصورة كاملة وتطويعها لأحكام الشرع وحفظ الحدود الإلهية، لكي تقومَ بإطاعة الأوامر واجتناب المناهي الإلهية بأكمل صورة، وبذلك تتجلىٰ الطهارة الظاهرية في البدن، وتصطبغ النفس أيضاً ـ وبصورة تدريجية ـ بصبغةِ الانقياد وملكة التسليم لإرادة الحق سبحانه. ويكفي للتحلي بهذه المرتبة تعلم علم الفقه[1] طبقاً للطريقة الجعفرية الحقة فهو يتكفل بتحقيق ذلك بأكمل صورة. والفقه مقدمة لتهذيب الأخلاق، والأخلاق مقدمة للتوحيد.

أما الطهارة الباطنية فهي طهارة الخيال من العقائد الباطلة والأوهام الفاسدة، ومن التجوال في ميدان الآمال والأماني؛ وكذلك طهارة الذهن من الأفكار الفاسدة ومن التصورات غير الواقعية وغير النافعة؛ وكذلك طهارة العقل من التقيّد بنتائج الأفكار فيما يختص بمعرفة الحق سبحانه، ومعرفة غرائب العلوم والأسرار المصاحبة لفيضه سبحانه المنبسط علىٰ الممكنات. وكذلك طهارة القلب من التقلب الذي هو نتيجةٌ للتشعب، والتشعب بدورِهِ نتيجة للتقاعس الذي يؤدي إلى تشتت العزم والإرادة. فيجب أن يكون القلب واحداً، يقولُ أمير المؤمنين عليه السلام:

«قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله سبحانه، فمَنْ طهر قلبه نظر الله إليه»[2].

---

(١) وبالخصوص تعلم ما يحتاجه الإنسان من مسائل علم الفقه دون إفراط ولا تفريط، ولذلك نلاحظ الشهيد الثاني يحذر في كتابه القيم منية المريد من الإفراط في تعلم ما لا يحتاجه الإنسان من تفريعات المسائل الفقهية، فهذا ضد طهارة النفس وبالتالي فهو سبب لقسوة القلب. [المترجم].

(٢) لم نعثر عليه في المصادر التي بين أيدينا.

وفي الكافي (ج ٢، ص:١٣) بإسناده عن سفيان بن عيينة قال: سألته - يعني أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾[1]؟ قال: «القلب السليم الذي يلقىٰ ربَّهُ وليس فيه أحد سواه».

وكذلك تشملُ الطهارة الباطنية طهارة النفس عن أغراضها، بل وعن ذاتها أيضاً فهي مصدر الآمال والأماني وكثرة الرغبات.

وكذلك تشمل طهارة الروح من الحظوظ الشريفة المرجوة من الحق تعالىٰ: مثل حظوظ: معرفته عزّ وجلّ وقربه ومشاهدته وباقي أنواع النعيم الروحاني، لأنه - وحسب تعبير الشيخ الرئيس في مقامات العارفين أي النمط التاسع من الإشارات -: «مَن آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني»[2]؛ ولذلك يكون العلم حجاباً حسب هذه الرؤية، وهذا وجه آخر في تفسير معنىٰ مقولة «العلم حجاب الله الأكبر»، أجل:

لا تكن عبادتك مشروطة بالأجر كما هو حال دعاء المتكدين
فالمولىٰ يعرف كيف يرعىٰ عباده[3]

قال النبي ﷺ: «قال الله تعالىٰ: مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين» (مصباح الشريعة).

---

(١) سورة الشعراء: ٨٩.

(٢) بمعنىٰ أن من توجه للعرفان من أجل العرفان نفسه، أي جعله غاية بنفسه وليس وسيلة للتقرب من الله عز وجل كأن يكون هدفه الحصول علىٰ المكاشفات واللذات الروحانية والطاقات المعنوية ونظائر ذلك؛ ففي هذه الحالة يكون قد اتخذ شريكاً لله أي «قال بالثاني» للواحد الأحد عز وجل، وهذا الثاني الشريك لله هو هذه اللذات الحاصلة من العرفان، وهذا خلاف التوحيد الخالص الذي دعا له القرآن الكريم وأهل بيت النبوة صلوات الله عليهم أجمعين. [المترجم].

(٣) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

وكذلك تشمل طهارة الحقيقة الإنسانية عن الافتقار لما هو موجود لدىٰ الجمع، وعن تغير صورة وحقيقة ما يأتي للإنسان من الحق سبحانه.

وكذلك طهارة سر الإنسان: وسر الإنسان هو حصته الوجودية من مطلق التجلي الجمعي، وبها يرتبط بالحق المطلق سبحانه ويستند عليه؛ وطهارة السر تتحقق باتصاله بالحق المطلق وزوال الأحكام التقييدية التي تعرض عليه بسبب مصاحبة عينه الثابتة التي هي المجلىٰ القابل للتجلي والمقيد به؛ وذلك لأن مقتضىٰ الحكم الإلهي الحتمي والسنة الإلهية الثابتة هو أن يكون كل تجلٍّ وصفاته تبعاً لمجلاه أي مرآته: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[1].

وتشمل الطهارة الباطنية أيضاً طهارة خاصة الإنسان، وذلك بعد عبوره مراتب طهارة بدنه وروحه وسره، وتتحقق هذه المرتبة من الطهارة بمقدار تحقق الإنسان بالحق تعالىٰ وفوزه بالتجلي الذاتي للحق سبحانه:

أنت يا حافظ بنفسك حجابَ طريقك، فأزلْ نفسك
فطوبىٰ لمن يسلك هذا الطريق دون حجاب[2]

---

(١) سورة فاطر: ٤٣.

(٢) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية، وحقيقة الطهارة هي إزالة كل ما يحجب العبد عن مولاه الحق تبارك وتعالىٰ أي كل ما يشغله بصره القلبي عن رؤية مولاه والانقطاع إليه عز وجل سواء كان هذا الحاجب المعاصي والشهوات أو رؤية العبادات والطاعات كثمرة للنفس وأنها من العبد والغفلة عن كونها من توفيق الله عز وجل، أو كان الحاجب العلم النوراني أو المكاشفات الروحانية وغير ذلك، فما دامت الرؤية متوجهة إلىٰ أي منها علىٰ نحو الاستقلال فهي حاجبة عن التوجه إلىٰ الله عز وجل والانقطاع إليه جل جلاله، وهذا المعنىٰ لا يتنافىٰ مع اتخاذ هذه الأشياء وسائل للتقرب من الله، فهي في واقعها نعمٌ إلهية يتحقق شكرها باتخاذها وسيلة ابتغاء رضا الله والتقرب منه والتحقق بالعبودية له عز وجل، وعندها يرىٰ =

وهذه المرتبة من طهارة خاصة الإنسان هي أعلىٰ مراتب طهارته، فلا يبقىٰ ثمة حجاب بعد التجلي الذاتي، ولا قرار للكاملين إلا بتحقق هذا التجلي، إذْ يحظون حينئذٍ بالحضور الكامل في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، ويفوزون بالمعية الذاتية المنبسطة علىٰ عالمي الغيب والشهادة وما يشتملان عليه.

واعلمْ، أن الحق سبحانه يتجلىٰ لك بمقدار ما يفنىٰ منك، ألا ترىٰ أنك تقولُ في ركوعك «سبحان ربي العظيم»، أما في السجود فإنك تقول: «سبحان ربي الأعلىٰ»؟ يقول العارف الشبستري:

لا يقف علىٰ سر الوحدة إلا مَن لم يقف في المواقف
وقلب العارف معرف الوجود، ووجودُهُ المطلق في الشهود
فاجتهد في تطهير القلب كي تَعدهُ مقراً للحبيب
إن وجودك أشواك ونشارة لا غير فتطهرْ منه كافة
فإذا خرجتَ أنت حلَّ الحبيب وتجلىٰ بحسنه لك أنت بلا أنت!
لن يدخل النورُ بيت قلبك ما لم تتطهر من الحجب
والحجب في هذا العالم أربعة ولذلك كانت الطهارات منها أربعاً
الأولىٰ الطهارة من الحدث والنجاسات، والثانية من المعاصي ومن شر الوسواس
والثالثة الطهارة من الأخلاق الذميمة التي تجعل الإنسان كالبهيمة
والرابعة طهارة السر من الأغيار، وهنا خاتمة السير
فكل من تطهّر بهذه الطهارات صار جديراً ـ ولا ريب ـ بالمناجاة
وما لم تتخلَّ بالكامل عن نفسك فلن تصير صلاتك صلاة

= العبد ربه الكريم في كل شيء، كما كان حال مولىٰ الموحدين وأمير المؤمنين عليه السلام فهو لم يكن ليعبد رباً لم يره بل كان يرىٰ مولاه قبل كل شيء وفيه وبعده. [المترجم].

أما إذا تطهرت ذاتك من كل شين

عندها تصير صلاتك قرةَ عين

وذلك عندما لا يبقىٰ أي تمييز في البين

إذ يصير المعروف والعارف شيئاً واحداً لا غير[1]

وفي الكافي عنهم عليهم السلام: «لنا حالاتٌ مع الله نحن هو وهو نحن» (الأسفار، ج٢، ص:٨٨، ط٢ مع تعليقة الحكيم المولىٰ علي النوري)، وفي رواية أخرىٰ: «لنا حالات مع الله هو فيها نحن، ونحن فيها هو، ومع ذلك هو هو ونحن نحن»[2] (كتاب «الكلمات المكنونة» للفيض الكاشاني، الكلمة رقم (٥٠)، عن الإمام الصادق عليه السلام).

والمروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله هو: «لي مع الله وقتٌ لا يسعني

---

(١) ترجمة نثرية لأبيات شعرية بالفارسية.

(٢) وهذه من غرر الروايات المبينة لحقيقة أن القول بوحدة الوجود أو أن يصير المعروف والعارف شيئاً واحداً لا غير، كما في البيت الأخير من أبيات العارف الشبستري، لا يعني أبداً الحلول والاتحاد أو تحول ممكن الوجود إلىٰ واجب الوجود فهذه الحدود محفوظة ولا يمكن لعاقل ـ فضلاً عن عارف ـ أن يقول بزوالها.
إن العبد الذي يبلغ المراتب العليا للطهارة يصبح مرآة صافية تعكس عظمة الله عز وجل وجلاله وجماله ويكون معرفاً له دون أن يخرج بذلك عن كونه مخلوقاً مربوباً لله عز وجل، وهذا معنىٰ القول بأن الإنسان الكامل هو اسم الله الأعظم وهو المعنىٰ الدقيق الذي يشير إليه الدعاء الرجبي المروي عن إمام عصرنا ـ أرواحنا فداه وعجل الله فرجه ـ حيث يصف أهل بيت النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فكانوا مرايا صافية تعكس بالكامل عظمة وجلال وجمال ربهم الأعلىٰ تبارك وتعالىٰ، يصفهم بأنهم: «المأمونون علىٰ سرك، المستبشرون بأمرك، الواصفون لقدرتك، المعلنون لعظمتك، وأسألك بما نطق فيهم من مشيئتك فجعلتهم معادن لكلماتك وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها مَن عرفك، لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك...»، فالفرق هو بين المرآة الصافية العاكسة للصورة الإلهية وهي حقيقة الكاملين من عباد الله المخلصين وبين صاحب الصورة جل جلاله. [المترجم].

فيه ملك مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ». وقد علق الحكيم المتأله المولىٰ علي النوري علىٰ ما أفاده صدر المتألهين في شرحه للحديث الثاني من كتاب التوحيد في أصول الكافي، بقوله: «قوله ﷺ: ولا نبي مرسل، نكرة في سياق النفي، فلا يسعه نفسه أيضاً في ذلك الوقت، فأشار إلىٰ خفاء نفسه عن نظر نفسه فضلاً عن خفاء غيره ﷺ عن نظر بصيرته البالغة إلىٰ درجةٍ لا يُتصورُ فوقها كما قال: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾[1]».

(1) سورة النجم: ٩.

الملحق العاشر[1]:

(بيان السيد ابن طاووس لكرامة «مَن بلغ»)

ذكر السيد ابنُ طاووس ـ رحمه الله ـ ضمن أعمال شهر رجب من كتابه القيم «الإقبال» (ص:٦٢٧، الطبعة القديمة المصححة من قبل الشيخ الشهيد فضل الله النوري) أصلاً باسم أصل هشام بن سالم، فقد ذكر السيد هذا الأصل ضمن مصادر حديث «مَن بلغ»، وقال: «ووجدنا هذا الحديث في أصل هشام بن سالم ـ رحمه الله ـ عن الصادق عليه السلام (هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام) قال: «من سمع شيئاً من الثواب على شيء وصنعه ـ فصنعه خ ـ كان له وإن لم يكن كما بلغه».

ثم قال السيد ـ رحمه الله ـ في توضيح هذا الحديث: «أقول: هذا فضل من الله جل جلاله، وكرم ما كان في الحساب أنك تعمل عملاً لم ينزله في الكتاب، ولم يأمر الله جل جلاله رسوله أن يبلغه إليك فتسلم أن يكون خطر ذلك العمل عليك وتصير من سعادتك في دنياك وآخرتك.

فاعلم أن هذا له مدخل في صفات الإسعاد والإرفاد فكيف لا

(١) النكتة (٦٤٦) من كتاب «ألف نكتة ونكتة» للمؤلف.

يكون من صفات رحمته وجوده لذاته، ومن لا نهاية لهباته ومن لا ينقصه الإحسان ولا يزيده الحرمان، ومن كل ما وصل إلى أهل ملكته فهو زائد في مملكته وتعظيم دولته. ولقد رويت ورأيت أخباراً لابن الفرات الوزير وغيره أنهم زور عليهم جماعة رقاعاً بالعطاب فعلموا أنها زور عليهم وأطلقوا ما وقع في التزوير، وهي من الأحاديث المشهورة عند الإيمان فلا أطيل بذكرها في هذا المكان.

وقد جاءت شريعتنا المعظمة بنحو هذه المساعي المكرمة وذاك أن حكم الشريعة المحمدية أنه لو التقى صف المسلمين في الحرب بصف الكافرين فتكلم واحد من أهل الإسلام كلمة اعتقدها كافر أنه قد أمنه بذلك الكلام لكان ذلك للكافر أماناً من القتل ودرعاً له من دروع السلامة والفضل. وقد تناصر ورود الروايات ادرأوا الحدود بالشبهات. فكن فيما نورده عاملاً على اليقين بالظفر ومعترفاً بحق محمد صلوات الله عليه سيد البشر». انتهى.

وإضافةً لهذا البيان الكلامي القيم والخطاب الإقناعي العميق بشأن حديث «مَن بلغ»، يوجد أيضاً بيانٌ برهاني عقلي وإيقاني، والله تعالىٰ مفيضُ الخيرات والبركات[1].

---

(١) يمكن أن نأخذ معنى الثواب في هذه الأحاديث بما هو أعم من الثواب الأخروي؛ أي بما يشمل الآثار التكوينية للأعمال الصالحة أيضاً، فهذا أقرب للغة الأحاديث الشريفة التي تستخدم معنىٰ الثواب بالمعنىٰ الشمولي، وعليه تكون من البركات الإلهية التي تخبر عنها أحاديث من بلغ أن القدرة الإلهية البالغة تجعل لأعمال ليست لها الآثار التكوينية والمصالح الحقيقية التي جعلها الله لصالحات الأعمال، تجعل لها مثل هذه الآثار المباركة، فتحيط هذه الآثار المباركة العامل بالأعمال التي سمع شيئاً من الثواب عليها وإن لم يكن في الواقع الأمر كما بلغه، أي لم تكن لهذه الأعمال تلك الآثار المباركة في واقع الأمر فيفيضها الله جلت عليها لاحقاً، وليس ذلك ببعيد علىٰ الله عز وجل الذي يبدل سيئات التائبين ويجعلها حسنات، كما نص علىٰ ذلك في كتابه المجيد في الآية السبعين من سورة الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)﴾. [المترجم].

الملحق الحادي عشر[1]:

(الهمة العالية وقصة دعاء كميل)

يقولُ السيد ابن طاووس في أعمال ليلة النصف من شعبان من كتابه القيم الإقبال:

«ومن الدعوات في هذه الليلة ما رويناه بإسنادنا إلىٰ جدي أبي جعفر الطوسي ـ رضي الله عنه ـ قال: رُوي أن كميل بن زياد النخعي رأىٰ أمير المؤمنين عليه السلام ساجداً يدعو بهذا الدعاء في ليلةِ النصف من شعبان.

ثم قال السيد: «أقول: ووجدتُ في رواية أخرىٰ ما هذا لفظها: قال كميل بن زياد:

«كُنتُ جالساً مع مولاي أمير المؤمنين عليه السلام في مسجدِ البصرة ومعهُ جماعةٌ من أصحابهِ، فَقَالَ بَعضُهُم: ما معنى قول الله عَزَّ وَجَّل ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؟ قال عليه السلام: ليلة النصف من شعبان، والذي نفس علي بيده أنه ما من عبد إلاّ وجميع ما يجري عليه من خير وشر مقسوم له في ليلة النصف من شعبان إلى آخر السنة في

---

(١) رسالة الولاية التكوينية للمؤلف والمطبوعة ضمن كتاب «مجموعةُ مقالات»، (ص: ٦٤ ـ ٦٦).

مثل تلك الليلة المقبلة، وما من عبد يحييها ويدعو بدعاء الخضر عليه السلام إلاّ أجيب له. فلمّا انصرف طرقته ليلاً فقال عليه السلام: ما جاء بك يا كميل؟ قلت :يا أمير المؤمنين، دعاء الخضر، فقال: اجلس يا كميل إذا حفظت هذا الدعاء فادع به كل ليلة جمعة أو في الشهر مرة أو في السنة مرة أو في عمرك مرة تكفّ وتنصر وترزق ولن تعدم المغفرة، يا كميل أوجب لك طول الصحبة لنا أن نجود لك بما سألت، ثُم قال اكتب، اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء»[1].

وكم كان كميل عالي الهمة، راسخ العزم، شديد العشق والشوق والتعطش لبلوغ غايته[2]، إذْ أنه ما أن عرف بأمر يعينه علىٰ ذلك بادر إلىٰ السعي للحصول عليه، فذهب إلىٰ الإمام عليه السلام ليلاً طالباً منه دعاء الخضر، فاستحصل ـ بحسن طلبه وصفاء سريرته وسمو هدفه ـ هذا الدعاء المبارك وادخره مأدبة عامرة لأهل الإقبال علىٰ الله والدعاء وأولي القلوب. وورثهم هذا الأثر القيم والقويم تذكاراً لهم به، وجعل من دعاء الخضر عليه السلام «دعاء كميل». أجل، يجب الاستجداء فالجواد يطلبُ مَن يستعطيه[3]:

---

(١) إلىٰ آخر هذا الدعاء العظيم الذي يُعد بحق من ذخائر الأدعية والمناجاة السامية، وهو يشتمل على أدق حقائق السير والسلوك إلىٰ الله عز وجل وشروط القرب الإلهي. [المترجم].

(٢) بلوغ المراتب السامية يتطلب الهمة العالية وعزمَ إرادة يطلب بها القرب الإلهي، فهذه المقامات لا تحصل بالتمني فالتمني بضاعة الهلكىٰ. [المترجم].

(٣) الاستجداء من الجواد الكريم سبحانه وتعالىٰ هو الاستجداء الوحيد الذي ينسجم مع عزة الإنسان الذي كرمه الله جل جلاله وعفته، بل هو مقتضىٰ كونه خليفة الله في أرضه، لأن خليفة الله لا يستجدي غيره واستجداؤُهُ منه هو مقتضىٰ عبوديته له وتذلله له، وهو ينفي عنه الاستكبار الذي يدخل أصحابه النار، كما تصرح بذلك آية الدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر ٦٠]، فالدعاء والطلب من الله سبحانه هو مقتضىٰ العبودية له جل جلاله. [المترجم].

يطرق النداءُ أسماع الطالبين هاتفاً
هلّموا، فالجود محتاج للمستجدّين مثلما هم له محتاجون
الجود محتاج يدعو الطالبين مثلما تطلب التوبة التائبين
الجود يبحث عن المستعطين والضعاف
مثلما يبحث الجميل عن المرآة الصافية
فطلعة الجميل تُظهر حسنها في المرآة الصافية
وطلعة الإحسان تظهر في استجداء المستعطين[1]

ويُستفاد من قول الإمام عليه السلام: «يا كميل أوجب لك طول الصحبة لنا أن نجود لك بما سألت» أن كميل كان ملازماً للإمام عليه السلام مدةً طويلة.

(١) ترجمة نثرية لأبيات شعر بالفارسية.



الفهرس


بسم الله الرحمن الرحيم